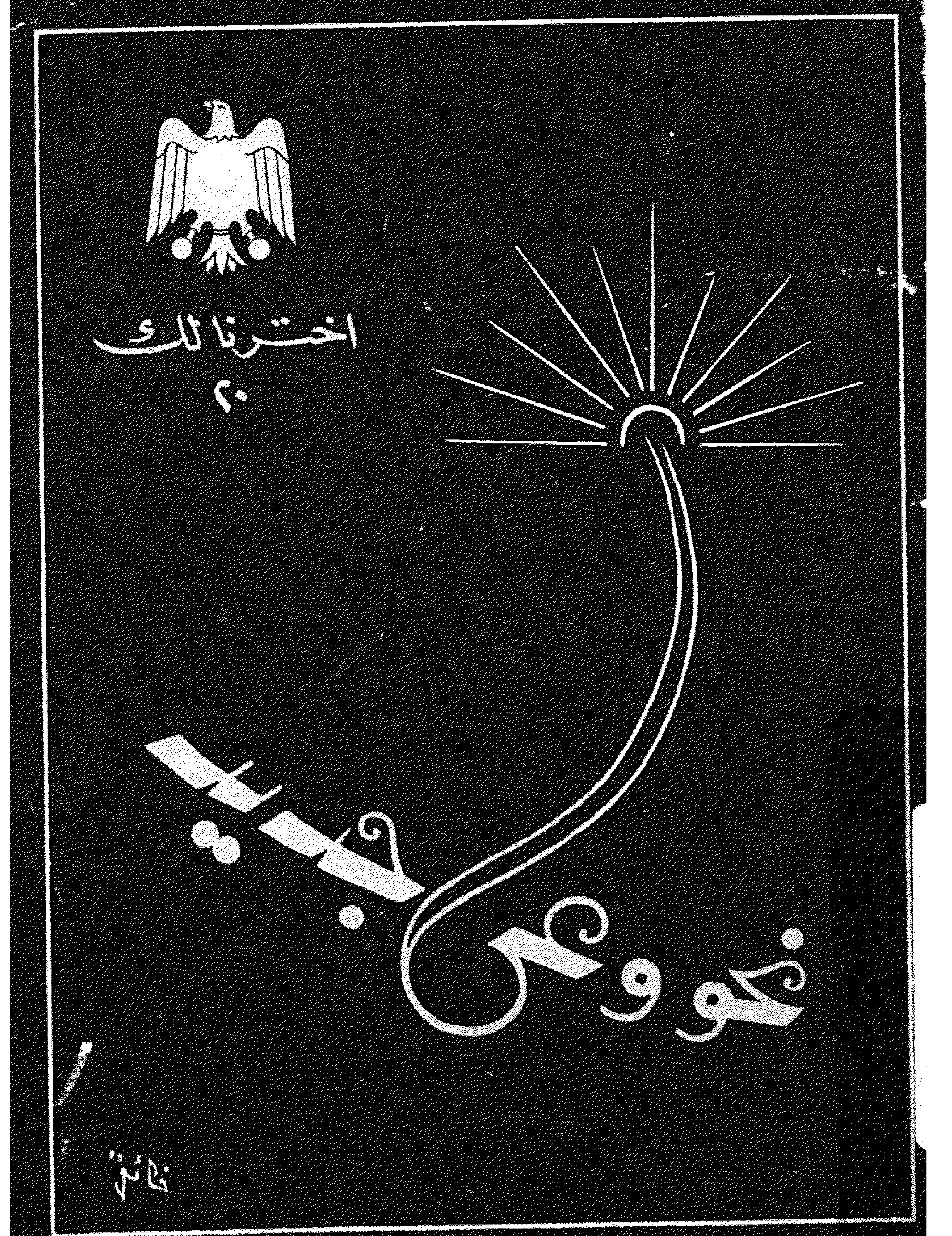

اخترنا لك
٢٠
نحو وعي جديد

اخترنا لك ...
٢٠

نحو وعيٍ جديد

تأليف
محمد مصطفى عطا

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

تمهيد

الوعى وبواعث تطوّره

لا أجد لفظاً من الألفاظ يدور على ألسنتنا ، ويصافح آذاننا بين لحظة وأخرى كلفظ « الوعى » وإن كان مدلوله غامضاً فى بعض الأذهان ، فهل يكون « اليقظة » ؟ وهل يرادف « النضج الفكرى » ؟ الحقيقة التى أدريها أن الوعى هو الإدراك الكامل لما يحيط بالإنسان من ظروف ، وما يقع فى عصره من أحداث ، أو تقليب الأمور على وجوهها حتى نحكم لها أو عليها ، ولا يكفى أن يقتصر الوعى فى الأمة على فئة قليلة بل ينبغى أن يمتد الوعى حتى يشمل الأعم الأغلب من الأمة ، فتحديد النسل مثلا فى مصر قد وعته جماعة من السكان بعد أن استقر فى أذهانها ضرورته لرفع مستوى المعيشة ، ولكننا لا نعتبره وعياً عامًّا لأن الأغلبية لم تؤمن به ولم تقدم عليه .

والرأى العام لا يكون قويًّا فى شعب من الشعوب إلا إذا كان هذا الشعب واعياً بصيراً يحكم على الأمور حكماً مسدداً أو مقارباً إلى السداد .

فنحن نعلم أن الرأى العام غير الواعى من اليسير تضليله ، وقياده ونفث السموم فيه كما كانت حالنا فى الماضى .

* * *

والوعى يبدأ فطريًّا ساذجاً فيقوم على الغرائز والإحساس والإلهام ثم يأخذ فى الاستنارة شيئاً فشيئاً حتى ينضج ويقارب الكمال ، فوعى مصر فى ثورة عرابى ثم فى ثورة ١٩١٩ من النوع الفطرى الملهم الذى تسيره أحاسيسه ومشاعره ، ففقدت الثورتان عنصر الدراسة والمعرفة وبعد النظر فآلتا إلى الإخفاق، ثم نما الوعى نوعاً ما فى سنة ١٩٣٥ التى انتهت بعقد معاهدةسنة ١٩٣٦ فقد أخذ زعماء ذلك الوقت يروجون لهذه المعاهدة ترويجاً مستمداً بعض أصوله من القانون الدولى،حدث هذا فى الجامعة وفى غير الجامعة ، وألفت كتب وأبحاث مستفيضة لتأييد وجهة النظر المصرية ، ثم قوى الوعى واشتد ساعده حين رفضت البلاد رفضاً قاطعاً فى سنة ١٩٤٦ معاهدة صدقى — بيفن القائمة على التحالف ، وكذلك رفضت المفاوضات التالية ومرد هذا الرفض الوعى الذى نضج على الأيام .

* * *

وهناك بواعث تؤدى إلى تطور الوعى وتدفعه إلى الأمام ، منها تقدم المدنية الحديثة فى الكشوف والمخترعات فاتصل العالم بعضه ببعض اتصالا وثيقاً ، ويسر له هذا الاتصال الراديو والتلفزيون والصحافة والطباعة وتبادل البعوث .

ومنها تقدم الفكر الإنسانى وبخاصة علم النفس الحديث وعلم الاجتماع والتجارب العلمية وربط السبب بالسبب والعلة بالمعلول وأخيراً تحطيم الذرة الذى قلب المعرفة الإنسانية رأساً على عقب .

هذه الروح العلمية عملت بكل الوسائل واصطنعت كل الأساليب لتنوير الأذهان والنهوض بالجماهير وتنمية مداركهم وتوسيع آفاقهم .

ومن العوامل التى تؤدى إلى تطور الوعى قيام الحروب حيث تحتمل الطبقة العاملة العبء الأكبر ، وتشارك بأوفى نصيب ؛ وحيث تنتشر الأفكار الحرة والآراء المتطرفة ، ويعمل هذا عمله فى محاولة الحكومات التقدم بمشروعات إصلاحية واسعة النطاق، وليس بعيداً عن أذهاننا ما حدث فى إنجلترا عقب الحرب العالمية الثانية فى عهد حكومة العمال من استصدار تشريعات متعددة لخير الطبقات العاملة .

وفى مصر كانت حرب فلسطين حدًّا فاصلا بين عهدين ، عهد الرجعية والإقطاع وعهد الاشتراكية الديمقراطية ، فقد عجزت الحكومات السابقة عن الاستجابة إلى دعوات الإصلاح ، والعمل لخير الفلاح والصانع وكان من الطبيعى أن يتغير الجهاز الحكومى من أساسه ليتيسر الإصلاح ويأخذ طريقه إلى الوجود فى سرعة وحزم .

* * *

ويتقدم الوعى كذلك بنشوب الثورات ، ففى ظلها يحصل الشعب على سلطات أوسع ، ويظفر بحقوق أكبر ، وترد إليه ثقته بنفسه ويخطو خطاً سريعة نحو الإصلاح والاستنارة ورفع مستوى معيشته ، ترى ظل هذا واضحاً فى كل الثورات العالمية ، الثورة الاستقلالية الأمريكية والثورة الفرنسية ، والثورة الكمالية التركية ، والثورة الروسية ، والثورة فى الصين الشعبية .

* * *

ويؤدى إلى تطور الوعى ظهور رجال أقوياء ، ذوى زعامة بادية تفعل فعلها فى النفوس بما تنطوى عليه جوانحها من إيمان وإخلاص

وما يحمل قلبها الكبير من حنو على البشرية والتخفيف من ويلاتها ، ويتمثل هؤلاء الرجال فى كبار المصلحين الذين حملوا راية الدفاع عن حقوق الإنسان المهدرة ، وكثيراً ما يؤذون من السفهاء ولكن إشعاع إيمانهم أنار لهم الطريق وخطف أبصار المرجفين ، فإذا دعوتهم تنتشر ، وإذا الوعى يتقدم بفضل إيمانهم وشدة إخلاصهم ومضاء عزمهم ، ويمكننا أن نعد فى طليعة هؤلاء الرجال الرسل والأنبياء والمصلحين الاجتماعيين .

* * *

ومما يعمل على تطور الوعى تكوين النقابات على نطاق واسع ، والجمعيات التعاونية ، والاتحادات المختلفة ؛ فعن طريقها يسهل نشر الوعى ، وتنوير الجماهير ، وقيادتها قيادة صالحة ، وتبصيرها بحقها وواجبها فى الحياة .

وتقدم الوعى ونضجه هو الضمان الفرد لصيانة حق الشعب ورعاية مصالحه والقيام بالتزاماته كاملة نحو الدولة ونحو بعضه وبعض ، وهو المقياس الحقيقى لنهضة الأمة فلنعمل ما وسعنا العمل فى ظل الثورة القائمة ، وفيما يستقبلنا من أعوام على تقدم وعينا بما رسمناه من خطوط ، وأوضحناه من معالم ؛ وسبيلنا هدم ثم بناء ، ومعرفة ثم نزوع ، ودراسة ثم عمل .

الوعي السياسي

١

عوائق تطوّره

١ ــ الاستبداد السياسى

إذا استعرضنا تاريخ مصر فى عصورها المختلفة منذ عصر بناة الأهرام إلى ما قبل الثورة المصرية الأخيرة ــ طالعتنا صورة هذا الاستبداد واضحة قوية ــ فخوفو سخر المصريين فى بناء الأهرام ، واستذلهم واستبد بهم حتى أقدموا بعد موته على تمزيق جثته جزاء وفاقاً على طغيانه وجبروته وتابع خلفاؤه سيرته ، ولم تتخفف مصر من هذا الاستبداد إلا فى عهد « امنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة والذى تولى الحكم عقب ثورة الموظفين وقيل عنه : « لقد طرد الظلم بعيداً لأنه أحب العدل كثيراً » ، وفى أيام حكم « إخناتون » الذى ثار على الظلم والاستعباد وكان إنسانياً فى حكمه بل المثل الأعلى للحاكم العادل الرحيم .

ولم تتنسم مصر نسيم العدالة إلا فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى حاسب ولاته حساباً عسيراً حتى كانوا هم الآخرون مضرب المثل فى العدالة « والناس على دين حكامهم » كما يقولون .

وقد قامت مصر الحديثة بثورات على هذا الاستبداد ، وقاومته مقاومة شديدة حيناً وهينة حيناً آخر ، وقد مثل هذه المقاومة السيد

عمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى والجبرتى المؤرخ ومن إليهم من شخصيات كرهت الطغيان والطاغية .

* * *

كلنا نعرف هذا التاريخ ، ونعرف أن مصر عانت كثيراً من جراء هذا الاستبداد الذى بلغ فى بعض الأحيان مبلغاً كريهاً فكم سيق مصريون لحفر « قناة السويس » واغتيلت حقوقهم وراحوا ضحايا الظلم والغصب ! !

وكم سخرت قوى المصريين لفلح أراضى الإقطاعيين ! !

وكم فرض عليهم تقديم ماشيتهم وأولادهم للعمل فى حقول الأمراء والسادة ! ! .

وكم شرد كثير منهم إذا شكا أو أظهر الضيق والتبرم ! ! .

وكم امتلأت السجون والمعتقلات بالمنادين بالتحرر والعدالة ! ! .

لقد قرأنا تاريخ الأمم الأخرى فلم نر شعباً استذل من حكامه كالشعب المصرى إذ تآمر على حكمه الولاة والمماليك والجراكسة الذى جلبوا من شتى الأقطار والنواحى .

ومن المحير حقاً للباحث فى تاريخ هذا الشعب أن يحصل على جواب شاف لتعليل هذه الظاهرة ، أهو سوء الطالع ؟ أهى المؤامرات الكبرى التى تحاك حول اغتصاب هذا الشعب ؟ أهى البيئة الزراعية البحتة التى توحى بالركود والاطمئنان ؟ أهو انقسام بعضه على بعض ؟ أهى الحقبة الطويلة التى عاش فيها مسلوب الإرادة ؟ أهو وضعه الاستراتيجى ؟ أهى الآراء الخبيثة التى لقنها من المستعمر حتى خدرت أعصابه ، واستنام

شعوره ؟ . أهى الضربات التى لحقت به فى تاريخه الطويل ؟ .

لست أدرى ولكن الذى أدريه أنه عانى طويلا ، ولحقه أعتى ظلم نزل بشعب من الشعوب .

وحين يحل الاستبداد السياسى بشعب يشل وعيه ، وتضطرب أهدافه ويصبح بمعزل عن سياسة المستبد الغاصب .

لقد خاض هذا الشعب غمار حروب رغماً عنه ، ولا نفع له من خوضها ، دفعه محمدعلى إلى خوض معارك شديدة فى الحجاز واليونان نالت منه ومن قوته وضحى فيها الكثير ، وماذا جنى منها غير الدمار والخراب ...؟

إنه خاضها قسراً عنه وحباً من الوالى فى الظهور بمظهر القوة أمام السلطان العثمانى أو فى الوصول إلى مأربه السياسى .

وخاض هذه الحروب فى الحرب العالمية الأولى دفاعاً عن الإمبراطورية البريطانية مضحياً بما يقرب من مليون نفس ، وخاضها فى حرب فلسطين من غير استعداد أو ترو .

* * *

وغلب هذا الشعب على أمره من الحكام الدخلاء المستبدين الذى سخروه لأهوائهم ومطامعهم ، واغتصبوا أرضه ، وامتصوا دمه ، وكتموا أنفاسه ، وأذاقوه العلقم والصاب ، وأوهموه أن الطاعة فرض على الرعية ، وألقوا فى روعه الخوف والفزع ، وداسوا كرامته وانتهكوا حرمته والويل لمن لا يخضع أو يثور ؛ فالسياط تلهب جسده ، وعبيد السلطان يهددونه فى رزقه حتى يرضخ أو ينفى من الأرض .

فى ظل هذه الأحكام الرهيبة القاسية كيف يرتفع صوت ؟ وكيف

يكون وعى ؟ وكيف ينال المصرى حقه ؟ وكيف يدافع عن مصالحه ؟

إن السياسة المصرية فى العصور المتطاولة إنما كانت سياسة الحاكم الفرد لا سياسة الشعب

سياسة الحاكم البعيد عن جو المحكومين ، الذى لا يتعرف طبائعهم أو يتفهم أهدافهم أو يحس باماله وآلامهم .

ولعل هذا العائق كان أخطر عائق فى سبيل تطور الوعى فى مصر وتقدمـــه .

٢ – الاستعمار

شهد عام ١٨٨٢ م الاعتداء المسلح على مصر من إنجلترا بحجة تثبيت قوائم العرش فيها وحماية الخديو من قادة الثورة العرابية ، وقد كان لهذا الاعتداء مقدمات ظهرت فى « المراقبة الثنائيه » وفى التدخل الإنجليزى السافر فى بدء الثورة العرابية .

ومنذ هذا التاريخ والاستعمار البريطانى يجثم على صدور المصريين ، ويتدخل تدخلا مباشراً فى السياستين الداخلية والخارجية ، ويوجههما التوجيه الذى يتفق ونزعاته وانصرفت مصر طوال هذه الفترة تجاهد هذا الاستعمار ، وتعمل بكل الوسائل على زعزعته ، ودفع غائلته عن البلاد ولكنه كان استعماراً خبيثاً مزمناً يحكم سافراً حيناً ، ومقنعاً أحياناً أخرى .

وكان يحكم سيطرته وتوليته الوزراء ، والموالين له من الحكام وما

كان له من عيون وأرصاد ، وما اصطنعه من حذق ومهارة فى اصطفاء أعوان له يتألفهم بالجاه حيناً والمال حيناً آخر ، وما أقدم عليه من تعيين الإنجليز فى كثير من إدارات الحكومة الحيوية ، كان بحكم هذا كله يضع يده على المعادين له من المصريين فيمثل بهم ويحاربهم فى أرزاقهم ، ويلقى بهم فى السجون والمعتقلات حتى يرضخوا ويستكينوا .

ومعنى هذا أن الاستعمار لم يكن عسكرياً فحسب بل كان استعماراً اقتصادياً ربط العملة المصرية بالجنيه الاسترلينى ، وحرم على مصر شراء سلع من غير إنجلترا أو بيع قطنها لغير الإنجليز حتى ربطوا عجلتنا بعجلتهم وضيقوا دائرة مجالنا الاقتصادى .

وكان استعماراً ثقافياً إذ فرضوا علينا ثقافتهم بنشرهم اللغة الإنجليزية فى المدارس والمعاهد وجعلوها اللغة الثانية بعد اللغة القومية ، وقصروا البعوث المصرية على إنجلترا وحرموا علينا التبادل الثقافى مع الدول الأخرى .

* * *

وقد هدف هذا الاستعمار إلى كبت الحرية السياسية وفض الاجتماعات وتفريق المظاهرات بالعنف والقوة ونفى الأحرار والقبض على الزعماء .

وحارب حرباً عنيفة لا هوادة فيها وجود حياة نيابية فى مصر لأننا لسنا أهلاً فى نظره لهذه الحياة فنحن شعب دون الشعوب الأوربية الأخرى المتخلفة فى الحضارة .

وحاربنا فى نشر التعليم وقصره على الكتاتيب وحصر المدارس الأخرى فى دائرة أضيق من سم الخياط وإذا وجدت كان الغرض منها تخريج موظفين لدواوين الحكومة لا أكثر ولا أقل .

وحارب الإنجليز قيام أية صناعة من الصناعات لأن هذا فيه تهديد لأرزاقهم وأرباحهم .

ووضعوا فى أذهاننا أن مصر بلد زراعى منذ أن كانت وستظل كذلك لأن الصناعة لا تزدهر فيها وليس لها مكان وأن المهارة الصناعية غير متوفره فى المصريين .

وأخذوا ينفثون سمومهم من أن الإنجليز « أقوى شعوب الأرض » وأن « أية قوة لا تستطيع النيل منهم » وأن « الشمس لا تغيب عن إمبراطوريتهم » كل هذا لإدخال الفزع والرعب فى النفوس والإجفال من المطالبة بحق الشعب فى الحرية والاستقلال .

وأعان الاستعمار على الإقطاع وشجع الرجعية ليمكن لاستبداده ويقضى على روح التمرد والعصيان ، ويضمن لنفسه العيش الطويل .

ومكن لنفسه بالتفرقة بين الصفوف ، وزعزعة القوى ، وبلبلة الخواطر وتزاحم الوافدين على بابه .

* * *

واستطاع الاستعمار الإنجليزى أن يبقى فى مصر طويلا ، لأن الإنجليز كانوا لا يزالون القوة الوحيدة على مسرح السياسة العالمية ، فهم الذين يوجهون المؤتمرات الدولية ويسيطرون عليها ، ويتحكمون فيها فإذا أصوات المصريين الأحرار لا تكاد تصل إلى سمع الرأى العام العالمى ، وإذا وصلت فإنما تصل بعيدة عن الحق ، مجانبة للصواب .

لقد أرادت مصر أن تمثل فى مؤتمر « فرساى » بعد الحرب العالمية الأولى ولكنها لم تظفر بطائل ، ونفى زعماء المصريين إلى جزر نائية ،

وأقمعت ثورة سنة ١٩١٩ بكل شدة وطغيان .

فهل يمكن وسط هذه العواصف والأنواء أن ينمو الوعى السياسى ، وأن يأخذ طريقه إلى التحرر والانبثاق ؟

قد يقال إن ثورة سنة ١٩١٩ كانت وعياً سياسياً . وأنا لا أراها كذلك بالمعنى الذى تواضع عليه بعض المؤرخين إذ أنها تأخرت عن الوقت الذى كان ينبغى أن تشب فيه ، فإنجلترا قد خرجت من الحرب العالمية الأولى مظفرة . فلا يمكن أن تتخلى عن مصر القاعدة الإنجليزية الأولى فى ذلك الوقت .

وكان من البصر بالأمور أن تتقدم هذه الثورة وأن ينفجر بركانها فى نفس الوقت الذى شبت فيه هذه الحرب .

وإذا كان هناك وعى سياسى ناضج لما حدث ما حدث من تقدم الوفد المصرى إثر سفره إلى لندن للتباحث مع لجنة ملنر التى قوطعت فى مصر مقاطعة تامة بمشروع معاهدة هى شر من الاحتلال الإنجليزى فى نتائجها .

* * *

فالوعى الذى أقصده وسبق أن تحدثت عنه إنما هو التمثل الكامل والإدراك الحق من جانب أغلبية الشعب لمطالبه السياسية وأهدافه الحقيقية فليس الهتاف بالاستقلال والمناداة به فحسب وعياً سياسياً ومن هنا كان انقسام الوفد على نفسه لأنه لم يكن واعياً لحقوقه ، فاهماً حق الفهم لمطالبه .

ولو كان هناك وعى حقيقى لما صرف المصريون عن مطلبهم الأسمى فيما بعد وأخذوا فى التطاحن والتكالب على النيابة أو السلطان .

وقد ظل الاستعمار يتدخل تدخلا مريباً فى السياسة المصرية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بالإشارة حيناً والإيحاء حينا والتهديد حيناً آخر وليس حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ م ببعيد عن أذهاننا .

وهذا التدخل غير مستغرب من استعمار يسنده احتلال ، ومن رجعية يهمها أن يظل الوضع قائماً حتى تحتمى فيه ، ومن ملكية تخشى نفوذ المصريين فتلجأ إلى رعاية دار الحماية أو السفارة ذات القوة والسلطان.

٣ – التطاحن الحزبى

قد يبدو غريباً أن تكون الحزبية فى مصر عائقاً من عوائق الوعى السياسى مع أنها فى البلاد الأخرى العريقة فى الديمقراطية قد تكون أداة من أدوات التنوير السياسى ، وتنمية الوعى وتقوية الإدراك .

ولكن هذه الغرابة ستزول عند ما نذكر أن الحزبية فى مصر كانت أداة تضليل لا تنوير .

لقد ضللت الشعب فى مناسبات متكررة ، ضللته فى قبول دستور جاء وليد تصريح ٢٨ فبراير الذى صدر من جانب واحد، وكان الأحجى بها أن تتجاهله وأن تظل على سعيها من المطالبة بالاستقلال التام وجلاء قوات الاحتلال .

وضللته فى قبول معاهدة سنة ١٩٣٦ وأطلقت عليها « وثيقة الشرف » و « معاهدة الصداقة والتحالف » وتحدثت عنها حديث الإشادة والتمجيد

وكان الأحرى أن تذكر على الأقل أنها خطوة فى سبيل الاستقلال يتلوها ما بعدها من خطوات ، فآمن الشعب واستنام وظل على ذلك فترة طويلة عند ما أحس بثقل القيود التى فرضتها هذه المعاهدة الجائرة .

وضللته فى حادث ٤ فبراير عند ما زعمت أنه ليس تدخلا سافراً من الإنجليز ، وتبادلت فى ذلك الوثائق التى تؤكد سيادة مصر مع أن صدور هذه الوثائق يحمل معنى التدخل الصريح .

وموّهت عليه عند دخول « حرب فلسطين » فزعمت أن مصر مستعدة لها كل الاستعداد وأن الجيش المصرى مسلح بأحدث الأسلحة ، ولم تظهر له الأمر على حقيقته فى أى طور من أطوار هذه الحرب .

* * *

وأخفت عنه حقائق فضائح الملك السابق ، وتدخله المريب فى أداة الحكم وانتهاكه محارم الأمة ومقدساتها ، وأخذت فى تمجيده ، وتعداد مفاخره التى لا تتوفر فيه إحداها .

فعلت هذا كله لأنها كانت مسيرة بقوى الإقطاع والرجعية التى يهمها دائماً أن يظل الوضع القائم سنادها وحاميها ، ومحافظة على كيانها فى النظام المرسوم ، وخوفاً من أن تبعد عن كراسى الحكم ومناصب السلطان وإنها لحريصة على اعتلاء هذه الكراسى حتى لا ينفض عنها أنصارها وحتى تجر المغانم لنفسها وذويها والمقربين إليها .

مع أنها لو استندت إلى القاعدة الشعبية وصمدت للعواصف ، وأقدمت على بعض التضحيات لكتب لنا تاريخ غير هذا التاريخ ، ولتطور إدراكنا السياسى تطوراً سريعاً ، وسبقت إلى الوجود ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ذلك بعشرات السنين .

٢

عوامل تطوّره

١ – تنافس الدول الكبرى

عند ما احتلت القوات البريطانية مصر تسيرها نزعة « الإمبريالزم » التى كانت مسيطرة على الرأى العام الإنجليزى حينذاك حيث انتشرت فلسفة الغاب؛ فلسفة « البقاء للأصلح » وأن الدول الكبرى هى التى ينبغى أن تبقى أما الدول الصغرى فيجب أن تزول من الوجود .

فى هذا العهد كانت هناك دول أخرى تنفس على الإنجليز احتلالهم مصر وترى فى هذا اختلالا للتوازن العالمى فى حوض البحر المتوسط ، وقضاء على مصالحها المكتسبة .

ولعل الدولة الأولى التى كان يهمها زوال الاحتلال هى تركيا صاحبة السيادة على مصر لا حباً فى المصريين ولكن عملا على إعادة سلطانها، وقد طلبت من الحكومة الإنجليزية تحديد موعد قريب للجلاء وبعثت مندوباً سامياً من طرفها هو الغازى (مختار باشا) للتفاوض مع المندوب السامى البريطانى بشأن قوات الاحتلال ومستقبل مصر ، وقد رأى المندوب ترحيل القوات الإنجليزية وترك الضباط الإنجليز مناصبهم فى الجيش المصرى ،

وزيادة عدد جيش مصر ليكون قادراً على الدفاع ولكن هذا لم يرق فى عين الإنجليز لأنه لا يتفق ووجهة نظرهم فى البقاء فى مصر .

على أن تركيا وإن كانت تعمل لمصلحتها أولا قد قوّت الشعور الوطنى وألهبته فأخذ يرفع صوته بالجلاء عن مصر .

* * *

أما الدولة الثانية التى عملت جاهدة على تقلص النفوذ الإنجليزى ومغادرة قوات الاحتلال فيما لا يزيد على ثمانية عشر شهراً فهى فرنسا صاحبة المصالح الواسعة فى مصر، والتى ترى أن حوض البحر المتوسط ينبغي أن يكون من شأنها هي قبل أية دولة أخرى إذ أنه مجالها، وموانيها تقع فى محيطه .

ولم يكن احتلال نابليون لمصر من قبيل الصدفة أو مجرد الغزو أو التوسع بل لأن هذه النظرية مسيطرة على الفرنسيين منذ أمد بعيد فهى إذن تنظر بعين الريبة والشك والكراهية لقوات الاحتلال الإنجليزية .

وقد كانت فرنسا على حق إذ أن الإنجليز لم يلبثوا إثر الاحتلال حتى ألغوا الرقابة الدولية الثنائية ليخلو لهم الجو ، ولتكون السيطرة المالية على الحكومة المصرية من حق مستشارهم المالى المعين فى الحكومة .

وعمد الإنجليز أيضاً إلى التدخل فى تعيين الوزراء المصريين منذ عهد الخديو عباس الثانى .

وأخذوا فى توطيد أقدامهم فى مصر بالإشراف الكلى على الحكومة المصرية وإضعاف الجيش المصرى وإقلال عدده حتى غدا هزيلا لا حول له ولا قوة .

رأت فرنسا ذلك فثارت ثائرتها وأخذت تضع العراقيل فى المحيط الدولى وفى مصر أمام الإنجليز ، وأخذت تؤلب عليهم القوى الوطنية وتعين الزعيم مصطفى كامل على جهاده وشدة معارضته ؛ مما كان لموقفها أثره القوى فى تطور الوعى السياسى ، وعدم ثقة المصريين الوطنيين بالوعود البريطانية.

وكانت روسيا هى الأخرى من العوامل التى ساعدت على عدم إطلاق إنجلترا يدها فى التحكم فى البلاد وبخاصة من الناحية الدولية .

وكذلك فعلت ألمانيا فى بعض عهد بسمارك .

وقد ظل هذا التنافس بين الدول الكبرى حتى عام ١٩٠٤ حين عقدت إنجلترا وفرنسا الاتفاق الودى الذى قسم النفوذ بينهما فى أفريقيا وحتى عام سنة ١٩١٦ حين خرجت إنجلترا من الحرب العالمية الأولى مظفرة إذ خلا لها الميدان حين هزمت تركيا وألمانيا وأملت شروطها على المغلوبين فى مؤتمر فرساى ثم مؤتمر لوزان .

وأيا ما كان الأمر فقد كان هذا التنافس من عوامل اشتداد ساعد التطور السياسى فى مصر وإن يكن فى نطاق محدود ؛ لأن التطور لا يأخذ كيانه ووجوده إلا بنضج الشعب ، وتفهمه الحقائق وعلمه بما يجرى من الأحداث ؛ ولم تكن مصر حتى الحرب العالمية الأولى قد تعلمت التعليم الكافى الذى يمكنها من أن تفهم ما يجرى حولها وأن تحذر الكيد الذى يكاد لها ، والمؤامرات التى تحاك من خلفها .

٢ – انبثاق فجر الحرية

انبثق فجر الحرية فى العالم بنجاح الثورة الفرنسية التى أكدت حقوق الإنسان الأولى من الحرية والإخاء والمساواة ، وظلت هذه التعاليم تأخذ طريقها إلى النفوس ، ويتجاوب أصداؤها فى أنحاء العالم ، وتقوم فى كل مكان ثورات تهدف إلى تحرر الإنسان من قيود الاستبداد ، والشعوب من أصفاد الاستعباد ، وترنحت قوى الطغيان فى بلاد كثيرة ، وكان على رأس العالم الشرقى حزب « تركيا الفتاة » الثورى الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد الثانى الاستبدادى النزعة وذلك فى مستهل القرن العشرين .

ولم تكن مصر أقل شأناً فى المشاركة فى هذه الحركات الثورية من غيرها ، فقد قامت الثورة العرابية تنادى بهذه الحرية وبحق الشعب فى أن يعبر عن إرادته وأن يحكم نفسه بنفسه .

لقد كانت هذه الثورة عاملا من عوامل التطور السياسى فى مصر إذ أنها اتجهت بالقاعدة الشعبية إلى أن تعرف حقها فى الحكم وتصريف الأمور .

ثم كان الاحتلال الإنجليزى فقام الشباب المثقف يطالب بالحرية وعلى رأسه الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد ، هذان الرجلان اللذان ضحيا بإغراء المناصب ، والتهافت على الحكم ، ووهبا نفسيهما للدفاع عن حقوق البلاد الشرعية سواء فى الداخل أو فى الخارج ،

وظلا كذلك حتى لفظا النفس الأخير .

إن جهادهما كان شعلة وهاجة أضاءت السبيل أمام الشعب المحتل ، وكان مثلا عالياً للتضحية والفداء .

إن فجر الحرية فى مصر قد غمر النفوس بفضل دفاعهما المجيد عن التحرر وتحطيم الاستبداد .

* * *

وقد حمل الراية من بعدهما جنود مخلصون لم يهنوا ولم يضعفوا أمام قوى الاستعمار وجبروته ، حديده وناره .

وكانت أدوات هؤلاء الجنود ألسنتهم الجبارة ، وبيانهم القاطع ، وإيمانهم العجيب تساندهم صحافة وطنية ، صحافة الرأى الحر التى هددت بالإغلاق وتشتيت كتابها واضطهادهم وسجنهم وتعذيبهم ولكنها صمدت لكل أولئك وكانت فى ذلك مضرب المثل ، وذلك بفضل وطنية هؤلاء الكتاب ، وتشجيع الشعب ، وإقبال الجمهور .

* * *

ولا يمكننا أن نغفل هذه المؤلفات القيمة التى ترجمت عن أحرار الكتاب العالميين وقدمت إلى قراء العربية فى مصر ، ففيها تمجيد للحرية وإعلاء من شان الأحرار وقادة الفكر وأبطال التاريخ وعظماء الرجال .

* * *

بل إن المسرح قد حمل فى هذه السبيل رسالة من أروع الرسالات ، وقدم للشعب أمثلة رائعة للوطنية وآيات نابضة بالاستشهاد والوفاء .

* * *

وكذلك فعل أعضاء البعوث الموفدون إلى الخارج ؛ لقد رأوا هناك عالماً يقدس الحرية ويعلى من شأنها أو يستشهد فى سبيلها .

رأوا الشعب الإنجليزى وفيه « الملك يملك ولا يحكم » والبرلمان قوة لا يستهان بها ، وفيه رجالات لهم الصدارة فى أوطانهم ، لتاريخهم المجيد وصفحاتهم الغر ، وما قدموا من جليل الأعمال لرفع شأن إمبراطوريتهم والتمكين لشعبهم .

وقرءوا عن كفاح هذا الشعب فى سبيل نيل حقوقه حتى استخلصها وصارت من مقدساته التى لا يجرؤ ملك على العبث بها أو النيل منها ، ووجدوا أن رئيس الوزراء هو الحاكم الفعلى للبلاد ومن ورائه أعوانه وخبراؤه ومستشاروه .

ورأوا الشعب الفرنسى المشبع بروح الحرية ، الفاهم لدوره فى الحياة ، الشعب الذى أنجب قادة الثورة الفرنسية وأنجب أمثال روسو وزولا ومونتيسكيو .

وعرفوا إرادة الشعب فى أوجها ، وكيف ينتشر التعليم فيه حتى تكاد أميته تختفى ، وكيف تسود الثقافة .

ودرسوا المذاهب التى تنادى بالحرية ، وتعمل لها وتؤكدها ، فعادوا إلى أوطانهم متشبعين بهذه الآراء والمذاهب ، وأخذوا يطلعون الشباب المثقف على مبلغ ما وصل إليه الغرب من التحرر والانطلاق والحضارة والتمدين ، حتى أوجدوا حركة فكرية مشتعلة ، وإذا الحركات السياسية تقوى والاجتماعية تخرج إلى الوجود ، والثقافية تنحو نحواً آخر ، تنحو نحو العلم الحق وتأخذ بمناهجه وروحه وأسلوبه .

فعرفنا المذاهب الفلسفية المعاصرة ، ووقفنا على المذاهب الاجتماعية المختلفة واطلعنا على روح الدساتير المتباينة .

وإذا المصلحون الاجتماعيون يهزون الشباب المثقف بأفكارهم المستنيرة فمهدوا للثورات الفكرية والاجتماعية والتقدمية التى حدثت فيما بعد .

٣ – ظهور المذاهب السياسية

كانت الديمقراطية أسبق المذاهب السياسية إلى الظهور فى مصر ؛ فالدستور المصرى الذى وضعته اللجنة أثر تصريح ٢٨ فبراير مقتبس من ديمقراطية الغرب السائدة آنذاك ؛ الديمقراطية التى تتمثل فى النظام النيابى المباشر وتقوم فى ظل الملكية . فهو إذن نظام مجلوب غير نابع من طبيعة البلاد ومن تاريخها الذى مر بها ومن نوع الحكم الذى يلائمها .

وقد أخذت الدول الكبرى كإنجلترا وفرنسا ثم أمريكا تؤازر هذا النظام وتحاول دعمه فى مصر بما تنشره من رسائل وبحوث ، وما تعرض من حسناته ومن أنه الوسيلة المثلى فى حكم الشعوب .

ومن البديهى أن هذه الدول قد آمنت بالديمقراطية أسلوباً للحكم لأنها نابعة منها ، ولأن الرجعية لا تفعل فعلها هناك فى هذا النظام فتحيله إلى أسوأ دكتاتورية عرفتها الشعوب كما حدث فى مصر ؛ ولأن هذه الشعوب الراقية قد تنورت إلى حد بعيد ، فلا تنال منها ملكية ولا يغتصب فيها أى حق من حقوق الشعب .

أما فى مصر فكانت نتائج الانتخابات تتفق دائماً والاتجاه الذى يرضاه الاستعمار أو تبغيه الملكية والرجعية .

ومع قيام هذا النظام الشائه فى مصر ، فإن أصوات الديمقراطية كانت تنبعث إلى الشباب المثقف فيعيها ويتمثلها ، وإذا هو يثور فى بعض الأحيان على هذه الأوضاع السقيمة القائمة ويندد بالدكتاتورية الملكية ، وقد حدثت فى مصر أحداث من الشباب الجامعى فى فترات مختلفة تهتف للديمقراطية الحقة وتنال من الملكية الجائرة .

ولكنها لم تخرج عن كونها لوناً من التطور السياسى والوعى الحقيقى لما كانت تساس به الأمة . وفى خلال تاريخنا المعاصر كان ينبعث من المصلحين أصوات تنادى « بأن الشرق لا يصلحه إلا حاكم مستبد عادل » — وقد كان الإمام محمد عبده على رأس المنادين بهذه الفكرة القوية فى مقاله الذى بدأه بقوله : « مستبد يُكرِه المتناكرين على التعارف . ويُلجيء الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف — يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه . . .

ثم يستطرد فيقول . . يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة — وهى سن مولود يبلغ الحلم — يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولى الصالح ، ويشتد حتى يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ومنها البتر والكى إذا اقتضت الحال . . . خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من أعوان

الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينظرونه .

ويختم مقاله قائلا « هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله ، عادلاً في قومه يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ؟ »(١).

وصيحة الألم هذه نابعة من شعوره ، وما كان يحس به هو والشعب المصرى من تعثر الحكم النيابي والنظام الديمقراطي المبتور الذى لا يصلح فى مصر والشرق .

والحق أن هذه الصيحة وإن لم تبلغ مبلغ الظهور إلى حيز الوجود ؛ لأن هذا الحاكم لم يكن قد ظهر بعد ، إلا أنها كانت تملك على الشباب المثقف المعاصر أقطار نفسه ، ويود لو يتخلص من آصار الحزبية والرجعية والوجوه العتيقة ذات الأفكار البالية التى لا تحس بتقدم الزمن وتطور الآراء.

وفى مصر الحديثة عرفنا الدعوة الاشتراكية حيث ترجم كتاب كارل ماركس عن « رأس المال » وألفت بحوث تدور حول هذه الدعوة أو ذلك المذهب .

وعاصرتنا دول أخذت به ، وتقدمت فى ظله تقدماً سريعاً وظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية دعوات للحد من الرأسمالية ، وتأميم المرافق والمصانع وتهيئة حياة أفضل للطبقتين الكادحة والمتوسطة سواء فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا .

كل هذه المذاهب كانت لها آثارها فى تطور الفكر السياسى فى مصر وتقدمه إلى أمام .

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده للسيد رشيد رضا ج ٢ ص ٣٩٠ .

٣

مظاهر تطوره

١ – اشتراكية الدولة

فعلت العوامل التى قدمنا فعلها فى تطور الوعى السياسى ، وإذا الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض، وإذا الأمور تجرى سراعاً، وإذا الشباب النابه فى الجيش المصرى الذى تأثر إلى حد بعيد بما يجرى حوله وما يدور فى أفق السياسة العالمية ، وما ينبغى أن تكون عليه الحال فى مصر ، وتختمر الآراء فى نفسه وإذا هو يقوم بثورته ويقوض النظام القائم العائق فى سبيل كل تطور وتقدم ونهوض .

وأول أمر أقدم عليه، التطويح بالملك السابق ثم التمهيد لقيام النظام الجمهورى ثم إعلان هذا النظام .

وكان هذا الإجراء ضرورة لتخليص مصر من الحكام الأتراك وجورهم واغتصابهم حقوق المصريين وأرضهم ، وتصرفاتهم الشاذة تصرفات السادة الذين لا يؤمنون بشورى ولا يعرفون معنى الديمقراطية، ولا يتذوقون روح العدالة.

ولقد أضحت الملكية المستبدة فى هذا العصر أثراً بعد عين ، وتهاوى أغلبها لأنها تمت بسبب إلى النظام القبلى القديم .

وكان من الطبيعى أن يزاح من الطريق الوجوه التى أعانت الملكية

الفاسدة ولم تكبح جماحها وأرخت لها العنان وطاولتها ومجدتها حتى سدرت فى غوايتها وأمعنت فى استبدادها وطغيانها .

وكان من الحتم اللازم أن تغير العقلية القديمة ، وأن تحل محلها عقليات تقدمية تؤمن بالأوضاع السليمة وبالديمقراطية الحقة التى تلائم وضعنا وكياننا ، والتى لا تعرف النظر إلى وراء أو التلكؤ أو التعثر . العقليات الناضجة ، العقليات الفتية التى لا تؤمن بالعجز أو القصور أو التردد أو الضعف .

العقليات المؤمنة بحق وطنها، عليها ألا تعرف غيره هدفاً .

وقد تقدمت البلاد على يديها تقدماً سريعاً ملحوظاً لم تتقدمه البلاد فى عشرات السنوات ، وقطعت فى أعوام ثلاثة ما عجزت عنه الأعصر السابقة جميعها .

ومن الطبيعى أن ثورة كهذه يؤمن بها شباب نابه تقدمى، ستعمل حساباً للطبقتين المتوسطة والكادحة، وأن تخفف عنهما الأعباء الثقال التى أوهنت كواهلهما، وأن تقدم على مشروعات تؤمن مستقبل أفرادها، وأن تقوم بأعمال لصالح الأجيال القادمة .

ولن يتأتى هذا الوضع إلا إذا قام فى مصر نظام اشتراكى معتدل، مما يطلق عليه الاشتراكية الديمقراطية .

إن هذا النظام أكثر ملاءمة لمصر من الأنظمة المغايرة، لم ؟ لأن مصر ظلت أمداً طويلا محرومة من كل إصلاح فى أى ميدان من الميادين ، وهذا الحرمان طال عليه الزمن حتى تعقد وأصبح من العسير القضاء عليه إلا بقوى جبارة لا تتوفر إلا فى مثل النظام الاشتراكى .

ولأن مصر قد جربت الحكم الديمقراطى المباشر فأخفق فيها إخفاقاً ذريعاً لأنه لا يلائم وضعنا وظروفنا .

ولأن مصر أشد ما تكون حاجة إلى التماسك والتآزر والوحدة حتى تستطيع أن تقوى مادياً وروحياً وتصمد لما يحاك لها فى الخارج وما يدبر لمستقبلها فى الخفاء .

ولأن مصر تحتاج إلى إيجاد نوع من التوازن بين الطبقات فيها ، فلا تطغى طبقة على طبقة، ولا تتحكم جماعة فى جماعة، أو قلة فى أغلبية .

ومما يؤيد هذا الاتجاه نجاح التجربة التى قام بها قادة الثورة، فقد أقدموا على مشروعات كان من العسير على نظام كالنظام الديمقراطى المباشر أن يخرجها إلى حيز التنفيذ ، وأقرب مثل على ذلك وحدة التشريع .

إن مصر تمر الآن بأخطر أطوارها، لأنها تعمل الآن للأجيال القادمة فإذا لم تستلهم دستورها ونظامها من ظروفها وحياتها وأحوالها منيت بإخفاق ذريع .

إن الدستور الأمريكى مرده فى نجاحه إلى أنه من وحى البيئة ومن خلق المجتمع غير المتجانس فى أجناسه ومذاهبه ؛ ومن هنا كان صلاحه فى الولايات المتحدة الأمريكية ولعله إن طبق فى غيرها فقد هذه الصلاحية وقلت أهميته .

وقمين بنا أن نتعظ بتجاربنا وتجارب غيرنا فى دستورنا الجديد ليكون الدستور المصرى الصميم .

٢ – نحو سياسة مستقلة

وقعت مصر اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ وأخذت القوات البريطانية فى الرحيل عن أرض القنال، وبذلك استكملت مصر سيادتها واستقلالها .

وكان عليها حينئذ أن تنظر فى سياستها الخارجية ، وأن تراجع موقفها من الأحداث العالمية وأن تنتهج سياسة تتفق وكيانها وتاريخها وكفاحها ، سياسة مصرية خالصة لا شرقية ولا غربية .

وموقف مصر فى ذلك طبيعى لا غرابة فيه ، فكل دولة ذات سيادة لها مطلق الحرية فى التصرف، وتتجه الوجهة التى يمليها عليها وجدانها ووضعها واتجاه الرأى العام فيها .

وإذن فما معنى الاستقلال وما معنى الحرية ؟

إن منطق حكومة مصر هو منطق كل حكومة تعرف معنى السيادة ومعنى الاستقلال ، فانجلترا مثلا تعترف بالصين الشعبية على حين أن أمريكا لا تعترف بها ومعنى هذا أن وضع كل منهما حتم عليه أن يسلك السبيل التى سلكها ولا ضير عليه فى ذلك . وربما رأت بعض الدول الكبرى فى سياسة مصر المستقلة اجتراء عليها إذ هى لا تزال تفهم أن مصر الحاضرة هى مصر التى كانت وأن مصر الآن هى مصر التى فرض عليها فيما مضى الارتباط بسياسة الغرب والسير فى عجلته .

لقد طلب إلى مصر أن ترتبط بسياسة الأحلاف ولكنها لم تقبل وهى حين قالت كلمتها كانت تعنى ما تقول ؛ فمصر دولة ليست لها أطماع إقليمية ، ومصر لا تبغى الدخول فى حرب ليس من ورائها نفع لها ، ومصر دولة تنشد السلام وتحاول أن تخفف من عقابيل الحرب الباردة ، ومصر ترغب فى أن تتجنب الحروب حتى تنصرف إلى البناء والتعمير .

هذا بالإضافة إلى أن مصر قد ضحت بالكثير من شبابها وأبنائها على مذبح الديمقراطيات أملا فى أن ترد إليها حقوقها السليبة ولكنها لم تفعل بل عمدت إلى إيذائها فى شعورها ، والتمكين لأعدائها منها ؛ وأقرب مثال على ذلك تلك المؤامرة الغربية الواسعة النطاق التى أرست قواعد دولة إسرائيل ، وأمدتها بالعون المالى والحربى على حين منعت كل أولئك عن مصر وعن البلاد العربية الأخرى ، وسوغت لنفسها أن ترى مصارعنا وتشريد إخوتنا وإبعادهم عن ديارهم وأرضهم .

عرفنا منها هذه الأمور التى لا تزال سادرة فيها ، فكيف نقدم على حلف معها ونحن على هذا الوضع ؟

إن مصر قد امتحنت كثيراً ، وصبرت طويلا فوعظتها الأيام والسنون وعلمتها العبر والأحداث .

ومصر لا تتجنى على أحد ولا تبغى الهجوم على آخر ، وإنما تمد يدها إلى الجميع على السواء : تناصر المظلوم ، وتدافع عن الحرية ، وتؤكد معنى العدالة ، فسياستها ضد الاستعمار فى أى صورة من صوره ، وسياستها تؤكد حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وسياستها تهدف دائماً إلى خير الشعوب ورفاهيتها ، وهى تؤمن بالمنظمات العالمية وبأنها فى

طريقها إلى الكمال وتؤمن بالسلام العالمى وانتباذ سياسة القوة التى كانت وبالا على المجتمعات الإنسانية .

وإذن فقد تطور الوعى السياسى تطوراً خطيراً وتبلورت إشعاعاته وتركزت فى انتهاج سياسة استقلالية ذات طابع إنسانى كريم ، بعد أن ظل وقتاً يتأرجح بين تأييد إحدى الكفتين أو الكتلتين المتنازعتين حتى هيأ له الغرب بتحيزه الخطة التى ينتهجها ، والسبيل التى يسلكها .

٣ – إلى اتحاد عربى مكين

ظلت البلاد العربية فى عهد الدولتين الأموية والعباسية أمة موحدة السياسة والأهداف ، وكان العربى إذا حل بأرض غير أرضه لا يحس بغربة ولا يشعر بوحدة ، وكأنه لم يفارق بلده ووطنه . وكان الشعراء والكتاب والرحالة لا يجدون بأساً من الانتقال والطواف والإقامة فى أرض عربية غير أرضهم .

وظل الحال على ذلك زمناً حتى كانت الدولة العثمانية التى أقامها فتيان العرب بحد سيوفهم وحموها من كثير من الغزوات والفتوح فاستنت سنة سيئة حين مكنت لنفسها وحكمت العالم العربى حكماً استعمارياً إذ أشاعت الاضطراب والقلق فى كل بلد حلت فيه، وأخذت تضرب الدول العربية بعضها ببعض حتى أوجدت سبيلا إلى الفرقة وخلفت هذه البلاد قاعاً صفصفاً بعد أن سلبت كنوزها ، واستولت على أغلى آثارها ،

وجردتها من مهرة صناعها واشتطت فى جمع الضرائب واستنزاف الأموال وانتهاك الحرمات .

وكان أن غلت فى المناداة بالعنصرية ، فجنسها أرفع الأجناس وما عداه من البشر فعبيد لا يستحقون السيادة أو يصلحون لإدارة دفة الحكم ليضعفوا ثقتهم بأنفسهم ، ويخلفوهم من غير معنوية أو روح ، وتهالك « الرجل المريض » وفارق دنيا العرب بعد أن وجد أن مصلحته لن تتحقق إلا إذا ارتمى فى أحضان الغرب وسار على سننه .

ثم غابت على البلاد العربية جحافل الاستعمار ، كل يريد أن يؤصل لنفسه فى بقعة من الأرض وأن يقيم محور ارتكاز لقواته ، فكان أن تمزقت البلاد العربية وأضحت شيعاً وأحزاباً ؛ فبلاد الشام تتوزعها دول أربع : سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ووادى النيل ينقسم إلى مصر والسودان ، وشبه الجزيرة العربية تنشأ فيه إلى جانب المملكة العربية السعودية واليمن والكويت أقسام ومحميات كثيرة لا حصر لها ومع هذا الانقسام الإقليمى فإن الدول العربية أو الرأى العام فيها على الأقل أخذ يهفو إلى نوع من الترابط يقربه من حلمه الذى يملك عليه مشاعره وهو « الاتحاد » وبخاصة فى عصر يعمل بكل الوسائل على إيجاد منظمات إقليمية إبقاء على القوميات ، وحفاظاً على الأوطان من أن تمزق تحت ضغط قوى الدول الكبرى وكان أن ظهرت فكرة « الجامعة العربية » .

وكان من البديهى أن يرحب رجالات العرب بهذا المشروع بعد إخفاق فكرة الخلافة الإسلامية وأن يستقر رأى الأغلبية منهم على الجامعة العربية كخطوة أولى فى سبيل الاتحاد ، وكان أن وقع ميثاق الجامعة العربية

فى القاهرة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ م .

وعلق الرأى العام العربى عليها آمالا كباراً ووجد فيها الراية التى يلتف حولها ويجمع أمره عليها ، وكان أول ما واجه الجامعة خوضها معارك الحرية فى أغلب الدول العربية التى لم تكتمل سيادتها ولم يجل الغاصب عنها .

وكانت معارك رهيبة لأن الرواسب التى خلفها المستعمر فى البلاد العربية كانت جد متراكبة وصنائعه الظاهرة والباطنة لما تزل منتشرة هنا وهناك، وحذقه اصطناع الوسائل الملتوية لإشاعة الاضطراب والفوضى فى المحيط العربى ، هذا إلى جانب سيطرة النزعة الاستعمارية على أغلب الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة وسيادة مبدأ القوة لا الحق ، ومحاربة الأمم المغلوبة على أمرها المطالبة بحق تقرير مصيرها كما بشر ميثاق الأطلنطى والعهود التى تلته .

وهكذا خاضت الجامعة المعارك فى جبهتين الداخلية والخارجية حتى تعرضت للأنواء والأعاصير ، واهتزت قوائمها حتى قاربت الانهيار ، ولكنها لم تعدم إخلاص المؤمنين بها فساندوها فى محنتها حتى تحقق رسالتها أو بعض رسالتها .

وكانت أشد منحة مرت بها الجامعة مأساة فلسطين إذ تكشفت عن عوامل الضعف فى الجبهة العربية مما حمل المخلصين من أبناء العالم العربى على القضاء على هذه العوامل وملافاة هذا النقص البادى فى التكتل العربى.

لقد وجدوا ألا معدى من دعم قوتهم الحربية أولا وتقوية جبهتهم الداخلية ثانياً ثم إيجاد قيادة موحدة على غرار قيادة شمال الأطلنطى .

وكان أن عرضت مصر ميثاق الضمان الجماعى ولكن هذا الميثاق

تعرض لريح عاتية فتعثر فى خطاه حتى كان عقد الحلف العراقى التركى فإذا الجامعة العربية تتعرض لمحنة أخرى لا تقل عن محنتها عقب معركة فلسطين حين رأت مصر وساندتها أغلب الدول العربية فى سياسة الأحلاف خطراً على منطقة الشرق الأوسط ، وذلك لأن هذه السياسة تهدف إلى خدمة مصالح الغرب ومطامعه وتقوية جبهة دفاعه على حين أن البلاد العربية لم تلق معونة صادقة أو مخلصة بعض الإخلاص من جانب الغرب .

فالغرب مصدر مآسينا مجتمعة مع ما بذلنا فى سبيله من الضحايا والأموال، ولم نفد من وراء هذا البذل إلا العريض من المواعيد فصرنا معه على حد قول المتنبى :

أنا الغنى وأموالى المواعيد

فقد ساعدت الجيوش العربية وعلى رأسها الشريف حسين والملك فيصل الأول البريطانيين مساعدة فعالة بعد أن قطعت على نفسها عهداً بتحرير الشعوب العربية ومنحها استقلالها حتى تم لهم النصر فى حروب العراق والشام بين عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ .

فعلت بريطانيا هذا فى الوقت الذى عقدت فيه مع فرنسا معاهدة سرية هى معاهدة سيكس بيكو Syks Picot فى ٩ مايو سنة ١٩١٦ حيث تقاسمتا النفوذ فى المنطقة العربية وساعدتها مصر كذلك فى الحرب العالمية الأولى مساعدة اعترفت بها كل الاعتراف ، ولكنها لم تمنحها استقلالها جزاء لها وفاقاً بل على العكس حاربتها حرباً عنيفة فى أثناء ثورتها سنة ١٩١٩ م .

وحدث مثل هذا فى مأساة فلسطين فقد أقامت الدول الغربية

وفى مقدمتها الولايات المتحدة دولة إسرائيل متحدية سكانها العرب الأصليين وإذا هم قد أضحوا حتى اليوم مشردين لاجئين ومضى عليهم فى الخيام سبع سنوات عجاف لاقوا فى خلالها المحن والأهوال ، ونزلت بساحتهم الفاقة والأدواء؛ وأخيراً تتقدم أمريكا متطوعة لحل مشكلتهم على أساس توطينهم فى البلاد العربية ليخلو الجو للدولة المعتدية وتصبح فلسطين غنيمة باردة لإسرائيل .

وإذن فكيف نتحالف مع هؤلاء القوم الذين لا يريدون بنا خيراً ؟

بل إن هذه الدول تعمل على خنقنا اقتصادياً وتؤلب علينا كل بلاد الأرض لتمنعنا التزود بالسلاح محاولة بذلك إجبارنا على أن نجرى فى فلكها لا بل أن نسير فى ركبها؛ وليس بعيداً عنا تلك الضجة التى أحدثتها بعد أن عقدنا اتفاقات تجارية بحتة مع تشيكوسلوفاكيا لتمدنا بالعتاد والسلاح وبعد أن رفضت أمريكا أن تعقد معنا مثل هذه الاتفاقات .

إن سياسة الأحلاف هذه ما أثيرت وما رسمت فى منطقتنا إلا لإيجاد الانشقاق فى صفوف الاتحاد العربى وزعزعة بنيانه فحسب .

إنى أقول ذلك وأنا أعتقد أن مخترعى قصة « الأحلاف » والمدافعين عن فكرتها والمنضمين تحت لوائها لا يعتمدون على خط دفاع الشرق الأوسط كما حدث لميثاق سعد — أباد فى أثناء الحرب العالمية الثانية الذى لم يزد عن كونه حبراً على ورق .

إلى ما فى سياسة الأحلاف من ازدياد حدة التوتر العالمى ، وانحدار البشرية إلى هاوية الفناء وإلى أن البلاد العربية يهمها قبل كل شىء أن يسودها الاستقرار وأن تجنب ويلات الحروب لتنصرف إلى البناء والتعمير وإزاحة

الركام المتخلف عن الاستعمار .

ولم تقف مصر جامدة إزاء خروج العراق على سياسة الجامعة العربية وانضمامها إلى الأحلاف الغربية بل تقدمت بمشروع خطير يهدف إلى توحيد السياسة الخارجية للدول العربية ، وعقد حلف عسكرى وإيجاد تعاون اقتصادى إلى أقصى حد ممكن .

وهذا المشروع يحمى الدول الأعضاء من أن ينتقض عليها ، وأن تهدد تهديداً مباشراً بين حين وآخر كما هو حادث اليوم .

ومن العجيب أن تتحد الولايات الأمريكية وتتغلب على كل العقبات ، وأن تدخل بريطانيا فى فلكها دولا لا تمت إليها بصلة اللهم إلا المنفعة المتبادلة فيما أطلقت عليه « الكومنولث البريطانى » .

ونحن المتحدون جنساً ولغة وديناً والمتجاورون أرضاً والمتآزرون فى كفاحنا المشترك الطويل ؛ ونحن الذين نتقارب فيما يحيط بنا من عوامل جغرافية وإقليمية ، ونتلاقى فى ماضينا وتاريخنا وثقافتنا كيف لا نتحد ؟ وكيف لا نقف جنباً إلى جنب ؟

إن أرواح الشهداء وصيحات المجاهدين الأبرار وأنين المشردين من العرب الفلسطينيين لتهز مشاعرنا وتثير الحسرة فينا وتدفع المثقفين منا إلى أن يرفعوا أصواتهم بالاتحاد ومؤازرة مصر فى موقفها حتى نستعيد مجد العرب وقوة العرب وكرامة العرب لا يثنينا عن هذا الجهر بالقول وعد أو وعيد ، سجن أو تشريد حتى تستريح ضمائرنا ويصبح الاتحاد العربى القوى حقيقة لا ريب فيها وقوة مرهوبة لا يستهان بها . ولا يطمع فيها .

وهكذا فرض تطور الوعى السياسى فى مصر أن ننتقل من فكرة

الجامعة العربية إلى إيجاد ميثاق الضمان الجماعى إلى الاتحاد العربى ، والدول العربية لا تهدف من وراء هذا الاتحاد إلى بغى أو عدوان أو الحصول على أطماع استعمارية ولكنها ترمى من ورائه إلى المحافظة على الكيان العربى والوطن العربى فقد شاءت الظروف أن يقع هذا الوطن فى منطقة استراتيجية هامة وأن يتوسط قارات ثلاثاً فتطلعت إليه الأنظار منذ القدم، ولكنه ظل عربيًّا وسيظل عربيًّا بفضل اتحادنا وتآزرنا وقوتنا .

الوَعىُ الاجتماعىّ

١

المجتمع المصرى

المجتمع المصرى مجتمع يضرب فى أعماق الزمن ، ويرتد إلى آلاف السنين ويحمل بذور حضارات وعناصر أمم شتى ؛ فعاشت فيه حضارة الفراعنة زماناً ، نشأت فى الجنوب ثم انتقلت إلى الشمال ووفدت عليه حضارة الفرس وظلت حيناً من الدهر ، ثم هبطت عليه حضارة الإغريق فالرومان فالعرب ، وانتقل الحكم فيه إلى المماليك فالأتراك فالفرنسيين وأخيراً الإنجليز .

ولا شك أن كل حضارة من هذه الحضارات قد خلفت آثاراً فى السلالة المصرية ، والتفكير المصرى وأسلوبه وعاداته وروحه .

إلا أن بعض هذه الحضارات قد كان أشد تأثيراً وأعمق ميسما من بعضها الآخر يعد فى مقدمتها الحضارة الفرعونية ثم الحضارة الرومانية فالحضارة العربية الإسلامية فحضارة الغرب المتمثلة فى اللاتينية والسكسونية.

الحضارة المصرية القديمة بفنها الذى يمتاز بالضخامة والدقة والسموق واحتفائها بالمقابر والمعابد وتقديمها الضحايا والقرابين على مذبح الآلهة وإجلالها للطبيعة وتقديسها الحيوان ، وعبادة القوة فى شتى مظاهرها ، بل هى الحضارة التى مهدت للديانات السماوية أن تنتشر فى مصر ، فالعبادة

التى انتهى إليها «إخناتون» هى عبادة التوحيد المتمثلة فى «آتون» ذلك الرب الرحيم الذى يرعى جميع الكائنات الحية، وكما قال المؤرخ برستيد: «لم نر أحداً قبل إخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم بكل الكائنات»[١] واعترفت بحق المرأة ومنحتها حريتها وساوتها بالرجل، فهى تلبس الملابس التى تكاد تلبسها اليوم السيدة المتحضرة، وهى تغدو وتروح فى الأسواق، وهى تشارك الرجل وتقاسمه الحياة فهى هى المرأة الريفية اليوم نشاهدها تحمل السلة أو المقطف أو الدواجن، أو قدر اللبن.

والحضارة المصرية هى التى أقامت المجتمع على طبقات متميزة — طبقة الملوك والأمراء المؤلهين وطبقة رجال الدين الذين يختار منهم الوزراء ويسيرون الدولة؛ وينقاد لهم الشعب ثم تليها الطبقة العاملة من زارع وصانع ومحارب.

الطبقتان الأوليان هما اللذان يسخران الشعب، ويجهدانه ليهيء لهما الحياة الناعمة الوادعة، ويحقق منازعهما ومعتقداتهما لا تأخذهما به رحمة ولا هوادة.

إنه فى سبيلهما يحيا ومن أجلهما يعيش ولذا أطلق المؤرخون على العصر الذى يلى عصر بناة الأهرام وهو عصر الفترة الأولى «عصر الإقطاع»

وليس من شك فى أن المجتمع المصرى قد حمل إلى اليوم بعض بذور هذه الحضارة وأن العادات والتقاليد قد تحدرت إليه حتى أيامنا هذه من العهد الفرعونى الواغل فى الزمن ولا أدل على ذلك من الموازنة بين فلاح اليوم، وفلاح الفراعنة إنهما لا يكادان يختلفان فى طرق الرى والزرع والحصاد والدأب والمثابرة، والصبر الطويل.

---

(١) انتصار الحضارة لبرستيد ص ١٣٣ ترجمة أحمد فخرى.

وتقديرنا للخلق الكريم كما كان يفعل قدماء المصريين سواء بسواء — فمن حكمهم فى هذا الصدد قول الوزير « بتاح حتب » « طوبى للرجل الذى يجعل الحق رايته ، ويسير دائماً فى ظلالها » .

* * *

والمجتمع المصرى قد تأثر بالرومان فأقبل على الحياة ، ، وعبّ من دنانها ، وأطلق العنان لملذاته ورغائبه لا فرق فى ذلك بين الطبقة الرفيعة والطبقة الكادحة ، أما الأولى فلأنها غارقة فى الترف والنعيم ، والفراغ والإسراف يمثلها أدق تمثيل قول شوقى على لسان كليوباترا مناجية أنطونيو .

أنطوان انفض الكرى ساعة وانقل القدم
قم كأمس اغنم الهوى واشرب الراح بالنغم
وتخير على المنى وتمتع من النعم

وأما الأخرى ففراراً من الضيق والبؤس ، وهرباً من الحياة وقسوتها فإذا هى تلهو فى وقت فراغها لتروح عن نفسها ، وإنها لتلهو فى صخب واستغراق .

* * *

والمجتمع المصرى قد تأثر بالعرب تأثراً بالغاً فأخذ أكثر سماتهم وعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم إذ أنه أصهر إليهم ، وتعلم لغتهم ، وحط الكثيرون رحالهم فيه ، ومن هنا لا ندهش أو يتماكنا العجب إذا رأينا فى أهله بعض العصبية أو سمات الحياة القبلية ؛ ترى هذا جلياً فيما ينشر فى الصحف كل يوم من أعمدة الوفيات والزواج ، وما نردده على ألسنتنا طويلا من أن هذا « أصيل » وأن الآخر « ابن أسرة » أو « من عائلة » وأن هذا

« وضيع » وذاك « رفيع » وتمسكنا بالتكافؤ فى الزواج إلى اليوم ، وما يتملك بعضنا من الانتقام للشرف والعرض ، والأخذ بالثأر ومعاملة الحريم من الرجال معاملة قد تجنح إلى الخشونة ، والتكثر من الأزواج والبنين .

وانقسام البلد الواحد إلى عصبيات ، واحتقار بعض المهن والحرف ، وترفعنا عن أن نعمل فيها أو أن نزاولها .

والمجتمع المصرى مجتمع « كريم » كما كان الحال مع أجداده العرب القدامى — فهو « كريم » فى وقته يتسامح فيه إلى أبعد حدود التسامح ، وإلا فبماذا نفسر كثرة المقاهى فى مصر ؟ وكيف نفسر تزاحم الزوار فى مكاتب العمل ؟ وكيف نؤول تهالك الشعب على زيارة الحاكمين من غير تقدير لما عليهم من مسئوليات جسام ؟ .

وهو « كريم » فى مطعمه ومشربه ؛ يفتن فى ألوان الطعام فإذا السفرة حافلة ، مع قلة روادها ، وإذا طعمت ونلت كفايتك أخذ الداعى أو الصديق فى التشديد عليك والحلف بأغلظ الإيمان لتزيد مما طعمت ، فإذا لم تسر فى تياره وتقبل إلحافه برم بك وضاق منك ورماك بعدم الوفاء والتكلف من غير أن يدرى أنك محدود الطاقة ، وإذا أكثرت من الطعام مرضت بأنواع من الأدواء التى يعانى منها أغلب المصريين .

وهذا الإسراف فى الطعام قد أصابنا بالتخمة ، وأجهد أمعدتنا ومعانا وأكبادنا ؛ وصرنا لا نقوى على الخشونة والصبر فى الأزمات الغذائية حيث قلة المحصول وكثرة الوارد ؛ فنحن لا نفكر إلا فى طعامنا نمسى ونصبح لندبر الطعام والشراب .

والغريب أننا نأكل وجبات الطعام اليومية ، ولا نكتفى بها بل نأكل

أيضاً بين فتراتها فإذا لم نجد ما نأكله أخذنا نتسلى « بالاب» و« الترمس» و « الحلبة » و « التين الشوكى » و « كيزان الذرة » و « المرطبات » و « المكسرات » من غير ضابط أو رابط وإنه لبلاء وأى بلاء .

إننا لا نكاد نعرف الاعتدال أو ما يقرب من الاعتدال .

* * *

والمجتمع المصرى قد أقامت بينه فى العصر الحديث جاليات أجنبية تنتمى إلى دول الغرب ، لها عاداتها وتقاليدها وملبسها ومباذلها ومع أن أغلبية المجتمع قد عاش بمعزل عن هذه الجاليات إلا أن بعضه قد تأثر بها سواء فى طعامه أو ملبسه وفى بعض عاداته وسلوكه .

ولعل التأثير الأقوى قد انحدر إلى المجتمع من سفر الكثيرين من الشباب المثقفين إلى أوربا وأمريكا وعيشهم فى المجتمعات هناك ، وتطبعهم بالكثير من طباعها ثم نشرهم هذه الطباع وتلك العادات فى المجتمع المصرى .

ولا شك أن المدنية الحديثة قد قربت بين الأجناس، وأصبح التواصل سمة العصر الحديث .

والمجتمع المصرى لا يعيش فى عزلة عن المجتمعات الأخرى إذ أن مصر الطريق الموصل بين الشرق والغرب فيمر به أجناس عديدة شرقية وغربية ، وكل من هذه الأجناس يحمل معه عاداته وسلوكه وثقافته ومناهجه .

وأنت اليوم تجد المجتمع المصرى وبخاصة فى المدن يقترب كل الاقتراب أو بعضه من المجتمع الغربى ؛ فمسكن المصرى يقترب فى نظامه وكيانه من مسكن الغربى ، وطعامه وشرابه كذلك ، وملبسه أيضاً بل

طريقة تفكيره ، واقتصاده وكفاحه فى الحياة .

ولا ننسى أن الطباعة كان لها تأثيرها العميق فى المجتمع المصرى إذ نقلت إليه محاسن الغربيين كما فعل أغلب كتابنا الذين نقلوا أسرار تقدم اللاتينين أو السكسونيين أو الأمريكيين ؛ وأطلعونا على حيوات هؤلاء القوم ومبلغ تأثيرها فى نضجهم وحضارتهم .

بل إن السينما والإذاعة كان لهما تأثيرهما العارم الذى أخذ يبدل كثيراً من عاداتنا ، ويحمل إلينا بعض عاداتهم ، ونخشى كل الخشية إن لم نقاوم هذا السبيل المتدفق أن يجرفنا تياره فإذا نحن نفقد مقوماتنا الأصيلة وعاداتنا القومية وتقاليدنا الوطيدة .

* * *

وبعد فما هذه العادات المصرية القويمة التى نتحدث عنها ؟

لعل من بينها انطباعنا على حب الخير ومساعدة المحتاج فلا يعيش بيننا جائع أو عار ، وإذا كرثت أحدنا كارثة هب الجميع إلى معونته .

هذه عادة من عاداتنا تراها فى الريف وتدركها فى الحى من المدينة وتلمسها على صفحات الجرائد .

ومن عاداتنا القويمة سجاحة طباعنا ، فلا نؤمن بالتعقيد ونكره الالتواء ونميل إلى الصفح والتسامح وبخاصة مع أنفسنا ؛ ومن هنا كانت ثورتنا الأخيرة بيضاء لم ترق فيها دماء حمراء .

ولا نأخذ بالتعصب ولا نميل إلى التزمت فى روحنا سماحة الإسلام وسجاحة الرسول عليه السلام .

والمصريون مرحون بطباعهم ولعل هذا مرده إلى إيمانهم بالقضاء والقدر

حلوه ومره؛ خيره وشره ويتمثلون دائماً بمثل هذا القول «ساعة لقلبك وساعة لربك» أو بقول امرئ القيس «اليوم خمر وغداً أمر» ومن هنا أجادوا النكتة البارعة، وفيهم جبابرة الفكاهة والسخرية اللاذعة.

ونحن مجتمع يؤمن بربه ويقبل على دينه ويزاوج بين أداء الفرائض والترويح عن النفس فلا يطغى حظ أحدهما على الآخر كما يقول تبارك وتعالى «وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا».

ومن هنا لم تعش بين ظهرانينا الجماعات المتطرفة المتعصبة.

* * *

والمجتمع المصرى على الرغم مما تعيش فيه من سلالات متباينة ومذاهب متفرقة، وأنماط مختلفة قد صهر الجميع فى بوتقته وطبعهم بطابعه؛ طابع محبة الخير والتسامح ولين الجانب وحسن المعاشرة.

فلهذا كان المجتمع المصرى أبعد المجتمعات عن أن تحترب فيه طبقات أو تخرج على أسلوبه جماعات، فمن عاش فيه سرعان ما يتأقلم، ويصبح ويمسى وكأنه عاش فيه منذ عشرات السنين.

إنه المجتمع المصرى وكفى.

٢

القوى التى تتحكم فيه

١ – الدين

الدين أو المعتقد الإلهى قديم قدم الإنسان وإن يكن قد تطور على الأزمان ؛ فمنذ أن وجد هذا المخلوق ذو العواطف والأحاسيس ، وذو العقل المفكر المبكر ، وعاش فى هذا العالم العميق الفسيح العالم المليء بالقوى الجبارة ؛ قوى الطبيعة الهدارة الصاخبة ، ذات الأدغال المظلمة الرهيبة ، والزواحف ذات السم الذعاف والفحيح المرعب والوحوش الضارية المخيفة ، والطيور الكاسرة المنقضة ، والبحار الواسعة العميقة ذات الأمواج الصاخبة الهدارة والحيتان الضخمة الهائلة ، والأنهار الجارفة فى فيضانها المليئة بالتماسيح السابحة الغادرة ، والسيول المتساقطة المنهمرة ، والصواعق الحارقة والرواعد القاصفة والبروق الخاطفة .

هذه القوى قد أدخلت الروع فى قلبه ، والبلبلة فى خاطره ، والحيرة فى نفسه ، والغموض فى ذهنه ؛ فإذا الخوف يملأ جوانبه ، وإذا الفزع يتمكن من نفسه فيهمهم بأصوات فيها ضراعة وابتهال ، ليرد العوادى عنه ، ويدفع الشر النازل به .

ولعل هذه هى نقطة البدء فى الديانات والتى منذ أن كانت أخذت

البشرية طويلا تتطلع إلى الوجهة التى تتجه إليها ، والملجأ الذى تفزع إليه فى ساعات ضعفها ، وأوقات محنتها ، وقد طال تطلعها واضطرابها وذبذبتها ، وكان أن انتهز رجال هذا القلق النفسى والحيرة الروحية فنصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة بين الإنسان والقوة الغيبية المسيطرة وقاموا فى الحضارات الإنسانية الأولى بأدوار خطيرة حتى عقدت لهم السيادة والسلطان سواء بطريق مباشر أم غير مباشر .

* * *

ثم كانت الرسالات الإلهية التى أهدت إلى البشر الكتب السماوية لتنظم العلاقة بين العبد وربه وبين بنى الإنسان بعضهم وبعض ؛ وبهذا وضعت للإنسانية أسسا وعقائد لا يتجاوزها الإنسان حتى لا يطغى ويبغى على أخيه الإنسان فينعق الفناء فى العالم ويطيح به وبالبشرية .

وكانت هذه الرسالات رحمة بالبشر ومنقذاً لهم من الضلال والتيه ، وكانت ضرورة من الضرورات حتمها التكوين الإنسانى الذي تسيره غرائزه الفطرية الجامحة التى هى أقرب إلى غرائز الحيوان الضارى الذى لا يعرف ضميراً أو يخشى عقاباً ، وحتمها كذلك تمرد هذا الإنسان وعتوه وجبروته فهو إذا أطلق لشهواته العنان لم يقف عند حد ولم يرع حرمة ولا يعرف رحمة ؛ والتاريخ يمدنا فى كل حين بهذه القسوة التى تنطق بها سير الطغاة من الغزاة من أمثال هولاكو وتيمور لنك وأتلا ، وجبابرة الاستعمار فى العصر الحديث .

بل إن حياتنا العادية تقدم إلينا أمثلة كثيرة فيها جنوح الإنسان إلى

الغلظة والتحجر ؛ من ذبح الابن أباه أو خنق الوالد ولده أو القتل العمد أو السلب والنهب .

وما مرد هذه الحوادث الرهيبة إلا تخدر الضمير الإنسانى ، وموت المشاعر فيه .

إن القوانين الوضعية قد وضعت لأمثال هذه الآثام والشرور أشد العقوبات الصارمة الرادعة ، ولكن الإنسان لا يرتدع بها ولا يرجع عن غيه وشره ، فلم يكن هناك سبيل إلا هذه الرسالات الإلهية لتقوى من شأن القوانين الوضعية من ناحية ، وتنذر الإنسان من ناحية أخرى بأنه إن أفلت من ربقة القانون فى الحياة الدنيا فإنه لن يفلت من الجزاء فى الآخرة ؛ فالله مطلع على الدقائق والجلائل ويعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور ، وقد أعد للمجرمين الضالين عذاباً أقسى ، وناراً أحمى ؛ أعد لهم نار جهنم ليخلدوا فيها حتى إذا نضجت جلودهم ، بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب وأى عذاب هو ! ! .

وإذن فالدين ضرورة من ضرورات المجتمع لأنه يوقظ الضمير الإنسانى ، ويزع الخاوق المتمرد، ويضع حدًّا لكثير من الشرور والآثام التى تهد كيان المجتمع وتقوض دعاماته .

ومن أجل هذا عنيت بأمره الحكومات المختلفة فى الأعصر المتطاولة وحاولت كل حكومة من الحكومات أن تجعل الدين سلاحاً لها تستعين به على التمكين لنفسها ، وترسيخ قواعدها سواء فى ذلك الحكومة الصالحة أو الأخرى الطالحة ، والتاريخ يجلى لنا هذا الموضوع أتم جلاء .

ولتأخذ أمثلة منه قد وقعت فى مصر فى العصر الحديث أو الوسيط

فعمرو بن العاص فاتح مصر قد أقام حكمه على العدالة والتسوية بين الحاكمين والمحكومين، مستمداً سياسته من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى العدالة المطلقة، ومن خليفة المسلمين في ذاك الوقت عمر الفاروق الذي حاسب الولاة حساباً عسيراً، وقضى على كل ما يشتم منه رائحة استغلال نفوذ أو كسب غير مشروع .

وهذا الحكم العادل هو الذي مكن للفتح الإسلامي، وكان أقوى دعاية للإسلام والدين الجديد الذي دخل الناس فيه أفواجاً طواعية واختياراً .

* * *

ولما اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني أريكة الحكم ، ورأى قوائم السلطنة تهتز من تحته عمل على إيقاظ الشعور الديني ودعا إلى الخلافة الإسلامية، وجند لها أقوى الدعاة، وأضخم الشخصيات في العالم الإسلامي من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني حتى آمن بها زعماء الشرق والغرب من المسلمين وانضووا تحت لواء الراية العثمانية يذودون عنها ، ويدفعون الطامعين فيها حتى استبان لهم حقيقتها ومغزاها ، والهدف الذي كان يرمي إليه السلطان من ورائها ، فانفضوا عنها وسار كل في طريقه .

* * *

ونحن نعلم جميعاً ما كان من أمر محمد علي عند اعتلائه ولاية مصر ، فقد رأى الأمور بيد علماء الأزهر فهم الزعماء والقادة وذوو الكلمة المطاعة في الشعب ، فأخذ يتقرب منهم ، ويتودد إليهم إلى أن ضمهم إلى جانبه وانتزع الثقة منهم فإذا هم يختارونه ولا يرضون به بديلا فيؤيد السلطان اختيارهم، ثم بدا له أن يكون الحاكم المطلق في البلاد لا ينازعه منازع ، ولا

يقف فى طريقه منافح ، فأخذ يخذل بين العلماء ويعمل على تفرقة صفوفهم حتى استطاع بدهائه ومكره وخبثه أن يصل إلى هدفه ، ولم يعارضه معارضة عنيفة قوية إلا السيد عمر مكرم الذى وقف أمامه بمفرده فسهل على الطاغية إقصاؤه ونفيه ، ثم تجنيد علماء الدين فى ركبه ، يأتمرون بأمره وينصاعون له وإن طغى وتجبر .

ونعلم أيضاً ما كان يتظاهر به بعض الحكام من التقى والورع ليوهموا السذج والأغرار بأنهم مؤمنون صادقون والدين براء منهم ، ولكن هؤلاء الحكام ما أقدموا على هذا التظاهر إلا لإدراك مستشاريهم مبلغ خطر الدين وتأثيره فى المجتمعات .

* * *

وقد رأى الاستعمار فى الدين قوة — وأية قوة — فإذا هو يعمل على استمالة علمائه ، وجلب رضاهم ، وقد كان نابليون داهية عصره بارعاً حين تقرب إلى المصريين باسم الدين إذ أنه أشاع فيهم احترامه للشعائر الإسلامية وقرب إليه العلماء وكون منهم « الديوان » ومنحهم سلطة داخلية واسعة وخلى بين المصريين وبين قيامهم بفرائض دينهم .

* * *

أما الإنجليز فلا أدل على إيمانهم بقوة تغلغل الدين فى مصر من تقريبهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ونصره على حكام مصر ، وتأييد وجهة نظره فى أكثر الأحايين .

* * *

والاستعمار الذى درس الجماهير دراسة علمية سيكولوجية لم يفته أن

يصل إلى أهدافه بتخدير الشعوب المستعمرة عن طريق الدين ، فقد استطاع بطريق غير مباشر أن يحمل الشعب على أن يرضخ للظلم ويستنيم للضيم بما ألقى فى روعه من أن يصبر على الطاغية فى الحياة الدنيا حتى يلقى عذابه فى الآخرة ؛ وأن عليه أن يؤمن بأن هذا قضاء الله ، وقضاؤه ينبغي أن نتقبله قبولا حسناً ، فهذه سمة المؤمن المخلص. ففشا على لساننا «الصبر طيب » و « المؤمن مبتلى » و « ربك يعدلها » و « خليها على الله » و « ربنا على الظالم » وغيرها من معانى السلبية .

واستطاع أيضاً أن يثبت فى نفسه أن الفقراء أحباب الله وأن الدنيا إلى الفناء . فعليه بالزهد والتقشف ضارباً له المثل من بعض شخصيات التاريخ الإسلامى . وزهاده ووعاظه ، وبعض أحاديث وآيات من القرآن . حتى كثرت التكايا والزوايا والانقطاع إلى العبادة ، وفشت السيوف الخشبية ، وظهرت أنواع أخرى من البطولات تجلت فى حذقه تكسير الزجاج وأكله والقبض على الجمرات الملتهبة وابتلاعها ، وإغماد ذبابة النصل فى الأجسام الضاوية والبشرة الميتة .

وانتهى الأمر بنا أن أصبح رجل الدين صورة لشخصية من أهم سماتها إغماض العين وكثرة « البسبسة » والإيغال فى « الشطحات » والبعد عن الدنيا والهرب من الحياة .

إن المستعمر عمل ما فى وسعه ، وبذل أقصى جهده ليثبت هذه المعانى فى نفوس الجمهرة من الشعب عن طريق الدين وقد صادف كثيراً من النجاح فى دعوته ، فأعوانه من المستشرقين والمقربين إليه من ذوى المناصب من رجال الدين قد هيئوا له الفرص ، وأعانوه على منطقه وبخاصة فى

أعقاب إخفاق الثورات الشعبية واستشهاد كثير فيها .

ومن هنا كان ضعف المسلمين ، واستكانتهم ، وإشاعة الحذر فيهم مع أن الإسلام يعد فى طليعة الديانات التى تدعو إلى القوة ؛ القوة المادية والقوة المعنوية ، والقوة النفسية .

إن طبيعته تتعارض كل التعارض وسياسة الخنوع والاستكانة والخور ، وهو ضد الزهد والتصوف وهو دين المد لا الجزر والانبساط لا التقبض والقوة لا الذلة ، والقرآن الكريم يدور أعمه على هذه المعانى ولا تكاد تلمح فيه ركوناً إلى الجمود أو استسلاماً للضعف ، فهو يدعو دائماً إلى الجهاد [١] والوقوف دائماً على أهبة الاستعداد .

ومن هذه الوجهة صمد الدين الإسلامى للقول الشيوعى « الدين خدر للشعوب وتنويم لها » وأدحض هذا القول لأنه لا ينطبق عليه فهو دين القوة والعمل الصالح فلا مكان بين صفوف المسلمين للضعفاء والخائرين والمتبطلين .

هذه الحقيقة عرضت لبسطها وتجليتها لما لها فى النفوس من خطر وشأن ولما للدين من قوة وسحر فى المجتمع المصرى .

وهى الحقيقة التى تفرض على الوعاظ والعلماء ورجال الفكر الإسلامى أن يراجعوا خطبهم وأسلوبهم وبحوثهم مراجعة ترفع من شأن المجتمع الإسلامى وتزيح أركام الاستكانة والاستخذاء ، وتعفى على الفقر والجهل ، وتقضى على كثير من سمات الضعف ، ويكفى أن أذكر فى هذا

---

(١) كتاب « الدعوة التحريرية الكبرى » للمؤلف ، من مجموعة «اخترنا لك».

الصدد خلق « الشفاعة » الذى فشا فينا وأصبح داء وبيلا ، فقد سوغه بعض الفقهاء مستندين إلى مثل قوله عليه السلام « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، من كفر بها لم ينلها » ومعنى هذا الحديث أن الرسول عليه السلام يشفع فى الآخرة لمن عصى الله ، واقترف الكبائر من الآثام وإذا كان هذا شأنه عليه الصلاة والسلام فحرى برجل الشارع أن يجعله مبدأ يسوغ له الشفاعة والوساطة ، ولست أدرى مبلغ صحة هذا الحديث وروايته أو المناسبة التى قيل فيها ولكن الذى أدريه أن جماعة من المسلمين لرأيها وزن فى التشريع والتقنين هى جماعة « المعتزلة » فقد أفتت بأن لا شفاعة فى عاص مستدلة بالآية القرآنية الكريمة « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » [١].

والقرآن الكريم حافل بأمثال هذه الآيات التى تؤيد رأى المعتزلة فقد أكد سبحانه وتعالى هذا المبدأ الصالح بآية أخرى تقارب الأولى فى اللفظ حتى تستقر معانيها فى نفوس المؤمنين حيث قال « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » .

وقال فى موضع آخر « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون » .

وقال أيضاً فى هذا المعنى « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شىء مقيتاً » .

وما أروع تعليق الإمام الزمخشرى على الآية الأخيرة حيث قال فى تفسيره « الشفاعة الحسنة هى التى روعى بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر ،

---

(١) الكشاف جزء ١ ص ٢٨٦ .

أو جلب إليه خير ، وابتغى بها وجه الله ، ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت فى أمر جائز لا فى حد من حدود الله ولا فى حق من الحقوق ، والسيئة ما كان بخلاف ذلك . وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع جارية ، فغضب وردها وقال : « لو علمت ما فى قلبك لما تكلمت فى حاجتك ، ولا أتكلم فيما بقى منها »[١] فأين هذا التعليق من تعقيب الإمام ناصر الدين أحمد الإسكندرى « أما من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم » [٢] .

وإننا اليوم على أبواب يقظة فكرية ، فليكن الدين أول وسيلة من وسائلنا لتثبيت معانى هذه اليقظة ورفع الروح المعنوية ، والأخذ بأسباب القوة والثراء والامتداد .

وعن طريق الدين يمكننا أن نفعل الكثير وأن نقوم من عوج المجتمع فنطبعه على النظام ونقتلع منه بذور الفوضى ، وأن نجعله متبصراً يفكر فى عواقب الأمور ، فتعدد الزوجات مثلا نستطيع أن نجد من الشريعة الإسلامية عوناً على الحد منه بمثل قوله عليه الصلاة والسلام « أبغض الحرام إلى الله الطلاق » وقوله عز وجل « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وقوله أيضاً « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم

---

(١) الكشاف جزء ١ ص ٢٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ .

مودة ورحمة » . ونعوده النظافة والأخذ بأسباب الجمال والذوق ، وأن نجعله يحيا حياة كريمة إنسانية ؛ فهذه الفضائل كلها مردها إلى الدين بل هو نبعها الأول ودستورها القويم .

٢ – الخلق الاجتماعى المنحرف

الخلق الاجتماعى أو العادات والتقاليد هو الصفات الغالبة على أمة من الأمم ، والتى انحدرت إليها نتيجة عوامل شتى قد يكون مردها إلى عامل الجنس أو الجو أو نظام الحكم أو الأداة الحكومية أو كثافة السكان أو ضآلتهم أو مستوى معيشة الفرد أو التفوق الحربى للأمة أو ضعفه أو إلى العوامل الاجتماعية الأخرى .

ولن نستطيع فى هذا البحث أن نلم بكل هذه العوامل ، ونستقصى كل الصفات وإنما نكتفى هنا بالصفات الفاشية المنحرفة ذات التأثير القوى فى كياننا ، والتى أصبحت لا تتلاءم والانتفاضة التى نعيش فيها اليوم ، وتعد فى مقدمة هذه الصفات .

(ا)

حدة الغيرة على الحريم

تتغلب علينا هذه السمة تغلباً بادياً ، وقد تكون أثراً من آثار نظام الحريم التركى أو أنها وفدت علينا من قبل منذ الفتح العربى ؛ فنحن نعلم مبلغ تمكن هذه السمة من العرب حتى باتت طبيعة فيهم ؛ فالعربى يغار على

حريمه غيرة شديدة ، ويدفع عن حرماته وأكثر تعبيراته تدور على « الخدر » و « الحجاب » و « العرض » و « الشرف » و « اللؤلؤ المكنون » ولعل قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » فيه إشارة إلى هذا المعنى .

ثم زاد هذه الطبيعة رسوخاً الفتح العثمانى ، وما يغلب على هذا الجنس من إغراق فى الحجاب والتضييق على المرأة حتى لا تكاد ترى ؛ ولعل طراز البناء العثمانى يقدم إلينا صورة من هذه الظاهرة .

أما الطبيعة المصرية فهى تختلف عن ذلك تمام الاختلاف إذ أن المرأة كانت سافرة كما عرضنا لذلك فى فصل آخر .

* * *

وما أن اتصلنا بالعالم الغربى فى العصر الحديث حتى رأينا هذه السمة تتطور ، وإذا الدعوة إلى السفور تلقى رواجاً على مدى الزمن وإن تكن بشكل أوضح وأبرز فى المدن الكبيرة حيث يغلب التمدين ، ويقوى من شأنه تباعد أطرافها ، وعدم وجود الترابط الوثيق بين الأسر كما هو الشأن فى القرى والمدن الصغيرة .

* * *

حقاً إن الريف المصري فيه سفور ، ولكنه سفور وقور محتشم ، السفور الذى لا يحمل التجمل أو التطرية ، السفور الجاد الذى لا فتنة فيه ، والويل للريفية التى تنحرف أو تخرج عن الجادة .

والريفية قد تمر بها ظروف قاسية من موت العائل ، وعدم وجود الرجل الذى يعولها وصغارها فإذا هى تحت الحاجة الملحة تقوم مقام العائل ،

تضرب فى الأرض فى قوة وعزم ، ولكن أمثال هؤلاء الريفيات لا يزلن أقلية إلى جانب الأغلبية التى تقصر رسالتها على العمل فى البيوت ، وقد تعد زوجة الفلاح من اليد العاملة فى الأمة وإن لم تخرج إلى الحقل ، لأنها تقوم بإنتاج اللبن والزبد وتربية الدجاج والماشية مما يرفع مستوى معيشة الأسرة نوعاً ما ، ولكن زوجة العامل ماذا تصنع ؟ لا شىء فتظل عالة على الوطن إذ تقوم بأدنى الأعمال وأقلها شأناً فى الإنتاج العام للدولة .

* * *

وليس هذا ما يعنينا فى هذا الفصل بل الذى يعنينا أثر هذا الخلق فى انطباعاتنا .

إن هذه الغيرة الحادة باعدت بين المرأة وبين الخروج إلى المجتمع وحجزها فى البيت بين أربعة جدران ، وقد يحرم على المرأة فى الصعيد ألا تشهد أخاها أو أن يزورها قريب من أقاربها ، وبعض حريمنا ينمن متحجبات وبعضهن لا يؤاكل الرجل أو يجلس فى مجلسه ، وبعض نسائنا ما زلن يعاملن معاملة المتاع ، وقد لعب الرأى الذى نطق به فقيه من فقهاء الإسلام من أن « المرأة للاستفراش » دوراً خطيراً فى مجتمعنا فجعلها لا تقوم حتى بواجب الزوجية من إعداد الطعام وتنظيف المسكن ومباشرة أعمال الزوج المنزلية .

هذه الأمور قد حورها الزمن ، وتغير الوسط ولكنها لا تزال تلقى بظلالها على سلوكنا ، ولا تزال المحاكم الشرعية أو محاكم الأحوال الشخصية تأخذ بها وتحكم بحكمها .

وما يزال الحاجز القائم بين الرجال والنساء عاملا من عوامل ما يدور على ألسنة بعضنا من ألفاظ تخدش الحياء ، وما نراه من شذوذ جنسى ،

وما يؤدى بأحداثنا إلى الإقدام على أعمال جنونية ، وأنا لا أدعو إلى الاختلاط التام ، ولكنى أدعو إلى الاختلاط المهذب ، فأسرة تزور أخرى فى حضرة ربى الأسرتين ومصاحبة الأخ أخته أو الزوج زوجته إلى بعض الأندية المهذبة ، واقتناع الرجل بوجوب الانتفاع بخدمات المرأة فى النواحى الاجتماعية والجمعيات الخيرية .

كل أولئك له أثره العميق فى أن نخفف من حدة جموح الشباب وأن تصبح المرأة عادية فى عالم الرجل لا أن تملك عليه تفكيره وإحساسه وعقله الباطن كما هو حادث اليوم .

* * *

وما زال مجتمعنا يعانى من إقدام الأب أو الأخ أو الزوج على ذبح المرأة إذا انحرفت أقل انحراف أو خرجت بعض الخروج عن المألوف ، وقد تؤخذ بالشبهة والظنة ويهدر دم زكى قد تكون البلاد فى أشد الحاجة إليه .

وقد تكون فتاة لم تدرك مغبة عملها ، وقد يكون انحرافها راجعاً إلى المثل السيئ الذى يضربه لها من يقدم على ذبحها أو خنقها ، وقد تكون الأسرة مخلخلة بزواج الأب من امرأة غير أمها ، وقد تكون هناك عوامل أخرى وراثية أو مكتسبة ، فما جريرة هذه الفتاة ؟ ولم لا تعالج أو تبصر بسوء مصيرها ؟

* * *

وقد أثر هذا الخلق على مزاجنا فإذا نحن لا نفيد من جمال الطبيعة ولا نرتاد مواطن الجبال ، والروعة فى وطننا ، ولا نروح عن صغارنا ، ولا نملأ

رئاتنا من الهواء الطلق فى الخلوات ولا نكاد نغادر بيوتنا كأننا شددنا إليها ، وليتنا نقصر أنفسنا على مساكننا بل نهرب منها ليرتاد الرجال والشباب المقاهى ذات الضجيج والعجيج ، الغاصة بالجمهور .

ولعل هذا الضيق هو الذى أوجد فى أبنائنا التمرد بعد زحمة المساكن وضيقها ، وأركب « العفاريت » بعض نسائنا أو أدى إلى فشو الأمراض العصبية فينا.

ودورنا إن لم تظل مغلقة النوافذ طوال النهار فإنها تغلف بالستائر حتى لا ينفذ منها النور والهواء .

إن هذة القيود الثقيلة مردها إلى غيرتنا الشديدة على الحريم ، وإلى تملك هذا الخلق منا حتى أصبح طبيعة من طبائعنا نحاول أن نتحرر منه كما سنذكر بعد .

(ب)

التحلل من القوانين

قدم إلىّ فى مكتبى ريفى متنور ، وطلب أن أمد له يد العون فى إدخال ابنه الحاصل على إجازة الدراسة الثانوية كلية من كليات الجامعة فقلت له ما النسبة التى حصل عليها ؟ أجاب ٥٠ ٪ فقلت إن ابنك ليس له مكان فى الجامعة . فتأثر الرجل تأثراً بادياً ، وقال : إنك تستطيع أن تفعل المستحيل إننى وأسرتى من الأعضاء العاملين فى إنجاح مبادئ الثورة وأهدافها ، فكيف لا يعيننى قادة الثورة على إدخال ابنى الجامعة ؟ فقلت له : أترضى أن يدخل ابنك الجامعة ويأخذ مكان آخر قد فاقه فى الجد

والمثابرة ؟ فضرب لى مثلا على اقتدار أحد رجال العهد الماضى فى الخروج على القانون إرضاء لخاطره .

هذا نموذج لفرد من المجتمع المصرى الذى يعيش اليوم وهو يعطينا مثالا فريداً لمحاولتنا التحلل من القوانين ، والالتجاء إلى الاستثناء والوساطة

نجد هذه الظاهرة فى أوائل كل عام دراسى حيث يضغط الجمهور على دواوين وزارة التربية والتعليم ضغطاً مستمراً محاولا الخروج على مواد القانون الذى أعده الخبراء والفنيون ومن يوجهون التعليم فى مصر .

فهذا يعمل على إدخال نجله المدرسة الابتدائية ولم يبلغ السن المقررة وذاك يريد أن يدخل ابنه المدرسة الثانوية ضارباً بالقوانين الموضوعة عرض الحائط ؛ فقد يكون قد تجاوز السن ، وقد يكون غير حاصل على الدرجات المطلوبة .

بل إن الانتظام فى التعليم الجامعى هو أيضاً من الأمور التى يريد الجمهور أن يتجاوز فيها القوانين .

وإذا حاولت أن تقنع هذا الإنسان الراجى لم يقنع ولم يحاول الفهم لمَ ؟ لأنه لا يزال يعيش بعقلية الماضى ، عقلية الفوضى عقلية المحسوبية .

وكم تعرض الواحد منا لسخط الكثيرين لأنه حاول أن يفهمهم الوضع الصحيح من أنه لم يعد مجال للوساطة أو التدخل .

ولكن لعن الله الحزبية والأحزاب ، وذوى المآرب والغايات من الرجعيين والإقطاعيين .

وتلمس هذا التحلل فيما يفرض على الجمهور من ضرائب ، إنه يعمل

بكل الوسائل على أن يتهرب منها أو من أغلبها ، فلم تتكون بعد عندنا « العقلية الضريبية » إن صح هذا التعبير مع أن هذه الضرائب إنما هى فى صميمها مظهر تعاون الفرد مع الحكومة لتستطيع الوفاء بالتزاماتها نحوه .

إن الفرد يطالب الحكومة بأن تهبه كل شىء ، يطالبها بأن يتعلم ابنه بالمجان فى كل مراحل التعليم ، فالتعليم للشعب كالماء والهواء ، والتعليم ضرورة من ضرورات الحياة ينبغى أن توفرها الدولة .

والفرد يطالب الحكومة بأن تقوم على حماية الفرد والمجتمع ، ويحاسبها حساباً شديداً إذا هى قصرت فى ذلك أو لم تبلغ الذروة فى استتباب الأمن ، ودفع عادية المعتدى .

والفرد يطالب الحكومة بتقديم خدمات اجتماعية ضخمة كإقامة المستشفيات وصرف الدواء بالمجان .

والفرد يطالبها بشق الترع وإقامة السدود ، وتوفير المياه ؛ يطالبها بكل أولئك ولا يريد أن يقوم بالتبعة أو يؤدى ما هو فرض عليه .

فكيف تتمكن الحكومة إذن أن تمضى فى سياستها الإنشائية والإصلاحية وتوفير الخدمات الاجتماعية والثقافية للجمهور المتعطش إليها ؟

ويتجلى هذا الخلق أيضاً فى الأداة الحكومية ذاتها فكل موظف يعمل على أن يستثنى ، وأن يمنح درجات ، وأن يتخطى الألوف ، وكل يريد أن يصل إلى أسمى درجة بأقل مجهود يبذل ، يسعى إلى ذلك ما وسعه السعى ، لا يكل ولا يهدأ بل إن هناك من افتن فى تصيد المقربين إلى الرؤساء ومتابعتهم ليتحدثوا عنه ، ويرفعوه درجة أو درجتين .

ولو أن كلا منا كان له وازع من نفسه ، وعرف قدر عمله ووضع

نفسه موضع المتخطى فى الترقية لأراح واستراح ، وأدى ما يطلب منه أداؤه بذمة وإخلاص ، فهو لن يداجى ، ولن يصانع بل سيقول قول الحق لأنه لا يبغى مأرباً ولا يرنو إلى هدف يصيبه سواء أكان هذا الهدف قريباً أو بعيداً .

لقد أنشئ ديوان الموظفين ، وأقيم مجلس الدولة ، وكذلك ديوان المحاسبة ، كل هذه الدواوين لحماية حق الموظف وتأمينه ولكنا لا نزال نعيش بعقلية الماضى ، عقلية التخطى والاستثناء يوم كان المحسوبون المقربون والمنعمون .

إن حكومة الثورة قد فعلت فى سبيل محو هذا الخلق الشىء الكثير ، ولكن الحكومات وحدها لا تضمن إنفاذ قانون من القوانين أو التزام من الالتزامات إلا إذا تضامن معها الجمهور ، وآمن بهذا الروح القويم .

قد يطول بنا الزمن بعض الشىء ولكننا فى الطريق سائرون وإلى الهدف الأسمى مقتربون .

وحتى يحين هذا الوقت فسيضيع الكثير من أوقاتنا ، وسيهدر بعض من مصالحنا ، ولنحص إذا تهيأ لنا ذلك — هذا الوقت المضيع إحصاء دقيقاً فى مصلحة من المصالح الحكومية ، إننا سنراع حتما وستكون نتيجة الإحصاء مؤذية لمن يغارون على الصالح العام ، صالح الدولة التى تحتاج فى عهدها الحاضر إلى العمل ، والعمل الدائب الموصول .

* * *

وأنت واجد صورة من هذا التحلل فى المدرسة أيضاً أو الجامعة أو معاهد العلم ، فالطلاب لا يقدرون المسئولية الملقاة على عواتقهم فيحاولون

ما وجدوا إلى ذلك سبيلا عدم الانتظام فى حجرات الدراسة وإذا ضيق عليهم حاولوا أن يثبتوا حضورهم ثم يخرجون إلى ملعب المدرسة وهم يحاولون أيضاً أن يزايلوا المدرسة حيث يقفزون أسوارها أو يتمارضون وكلمة «التزويغ» عندهم تساوى كلمة « البطولة » ولا يعرفون أن الدولة تحترق من أجلهم ، والآباء يكدحون ليتعلموا ويصبحوا رجال المستقبل العاملين ، وقد يحرمون أنفسهم متاع الحياة الدنيا وخيراتها ، وأن عملهم هذا له عواقب وخيمة فى مستقبل البلاد ، وما تعلق عليهم من آمال كبار ؛ هم لا يحفلون بكل هذا ، ويصمون عنه آذانهم ، ولا يفتحون له قلوبهم .

إنهم يرون المدرسة سجناً ، وقاعة الدراسة قيداً بل قيداً ثقيلا غليظاً .

ولمَ ذلك ؟ لا تدرى إلا أنها الموجة الزاحفة موجة « التحلل » من القوانين والخروج عليها .

قد يكون هذا التحلل نابعاً من السياسة المدرسية أو طرائق التدريس ولكن الأمر الذى نود هنا أن نؤكده هو أن بعضاً من نابهى الطلاب يقبلون على الدرس ، ويشغفون به ، ويؤذيهم ما يجنح إليه إخوانهم .

ولا يقتصر الأمر فى المعهد الدراسى على « التزويغ » بل يتجاوزه إلى العبث فى قاعة الدرس ، ويقوم « التهريج » فيها مقام « التزويغ » .

ومهرجو الفصول من المتخلفين فى الدرس أو كبار السن ، أو التلاميذ المعضلين فإذا أخذ المربى فى الإفهام والتعليم بدت مضايقتهم له فيضرب عن الكلام ، ويمسك عن الشرح والدرس ؛ وما العاقبة ؟ إنها تخلف الطلاب وانعدام الثقة بينهم وبين أساتذتهم .

* * *

إن هذا الخلق يطالعك فى المنزل وفى المدرسة ، وفى كل مكان من المجتمع حتى أصبح عنواناً من عنواناتنا ، وسمة من سماتنا وأضحى قوة من القوى المدمرة فى كياننا ، فلنحاول التخلص منه والضرب على أيدى المؤمنين به ، والعاملين له لنحيا حياة أخرى حياة فيها « الضبط والربط » بلغة العسكريين وما أقواها من حياة . . .

* * *

(جـ)

التشكيك فى الذمم

وهذا طبع من طباعنا ، وخلق فاش فينا ، فالمرءوس يتشكك فى رئيسه والجمهور لا يثق بمن يتصدرون للخدمة العامة أو يتصدرون منصباً من المناصب ، والرؤساء يطعن بعضهم فى بعض ، وكل منا يستريب فى الآخر.

وقد نشأ عن هذا الخلق أخطار حاقت بمستقبل البلاد ، وانطوت مشروعات كان ينبغى أن تسبق وجودها بسنوات ، وتوقف الدولاب الحكومى بعض التوقف ، وران على أعمالنا جو من السرية والشك .

ومرد هذا إلى الفئة التى استغلت البلاد استغلالا غير مشروع ، وما وقع فى عصرنا من ضحايا نتيجة حسن النية ، وتوافر الثقة فقد كان الأخ يضمن أخاه فيما يقع فيه من ديون ؛ وإذا هذا الأخ لا يوفى بدينه ، ويترك الأخ فريسة للربا الفاحش ، وبخاصة فى عصر الامتيازات الأجنبية .

وكان رجل الشارع يأتمن الداعين إلى التبرع لمشروعات البر والخير والخدمات الاجتماعية ، وإذا هؤلاء لا يفون بوعدهم ، وقد يتصرفون فى المال المتبرع به تصرفاً غير كريم أو على أساس غير سليم .

وكان القائمون على المناصب فى العهود السوالف يستغلون وظائفهم استغلالا دنيئاً أو غير مشروع فيقدمون المحظى لديهم ، والمقرب إليهم ، ويهدرون حق صاحب الحق ، ويتوسلون إلى ذلك بشتى الحيل والأساليب.

ورأينا الوعود تبذل فى أيام الانتخابات العامة ، وإذا ممثلو الأمة أو من أطلق عليهم هذا الاسم ينصرفون عن تحقيق هذه الوعود إما لإغراقها فى الخيال أو بتعذر تحقيقها أو بانصراف النائب إلى مصالحة الشخصية البحتة.

ولمسنا كثيراً من الشكاوى لا تحقق تحقيقاً عادلا بل يبرم فيها لصالح القوى وإهدار حق الضعيف وهذا أثر من آثار الاستبداد الاجتماعى وتحكم الإقطاعيين فى تسيير دفة الأمور .

وهو أثر من آثار النظام السياسى الفاسد الذى كانت تحكم به البلاد.

بل هو أثر من آثار عدم توفير الكرامة أو العزة للمواطن أيا كان شأنه ووضعه .

إننا نعانى اليوم مما كنا نحياه بالأمس .

وإن الثقة بدأت تعاودنا بعد أن غيرنا أسلوب الحكم ، ونظام الحكم وطاقم الحاكمين .

وإذا كان فينا شيات من العهد البائد فلأن أمثال هذه الطبائع لا تغير بين لحظة وأخرى أو يوم وآخر بل لا بد لها من سنوات حتى تستقر فى النفوس ، وتركز فى الطباع .

فالمشروعات اليوم تأخذ طريقها إلى التنفيذ ، بعد دراسة وتعمق وإحاطتها بكافة الضمانات .

والموظف اليوم يبرم الأمر فى شجاعة وجرأة بعد أن مر عليه زمان كان يقدم فيه رجلا ويؤخر أخرى بل إنه كان يعرض الأمر على رئيسه ، والرئيس على من فوقه وهكذا وكل يخشى أن يرمى بعدم النزاهة أو أنه يبغى من وراء إبداء الرأى كسباً لقريب أو تحقيق ربح لشركة متواطئ معها أو جر مغنم إليه .

كل هذه المعانى من التشكيك كانت تدور فى خاطره فيلقى المسئولية على غيره ؛ ومن الضحية ؟ إنه الوطن المسكين ، والصالح العام .

ومن مظاهر هذا التشكيك التجاء الرؤساء فى تافه الأمور وجليلها إلى تكوين اللجان والتستر وراءها حتى يزول كل أثر من آثار الشك ؛ ولكن ليست هكذا تدار سياسة الدولة ، وما هكذا يبت فى مصاير الناس والجماعات .

إن المفروض فى الموظف أنه مؤتمن على وظيفته ، فمن حقه أن يبرم الأمر وأن يحله ، ومن حق رئيسه أن يراجعه فيه ، ومن حق الدولة أن تحاكمه إذا فرط أو ظهر منه استغلال نفوذ أو ضعف نفسى .

إننا نريد أن نستعيد ثقتنا بأنفسنا ، وثقة بعضنا ببعض وثقتنا فى رؤسائنا وحكامنا .

إن هذا التشكيك أو الوسوسة أثر من آثار الضعف والخور بل هو أثر من آثار الاحتلال الطويل فلنمنح أبناءنا الثقة ولنأخذ شريكاتنا فى الحياة بها ، ولنثق فى حكوماتنا .

وليس معنى منح الثقة أن نغفل عن الرقابة أو اليقظة أو الانتباه .

وإنما معناها ما ذهب إليه المشرع الإسلامى الحكيم حين قال «لنحمل حال المؤمن على الصلاح » .

قد يخطئ بعضنا ، وقد يسىء استعمال السلطة الممنوحة له حيناً ولكن الثقة ستعاوده حتما ؛ وسيكون كسبنا عظيما من وراء هذه الثقة فى غدنا القريب .

إنه ليسوءنا أن نأخذ الناس بالظنة وأن نستريب فى أعمالهم ؛ فالأخ يسىء الظن بأخيه ، والزوج بزوجه ، والأب بابنه ، والحاكم بالمحكوم ، والمحكوم بالحاكم .

فلن يكون من وراء ذلك إلا التأخر والانحلال والضياع وهذا ما لا نرضاه فى عهد الثورة والحسم والبت فى الأمور بل إن هذا التشكيك يعد أعدى أعداء الإصلاح الذى لا يؤتى أكله إلا بتوفر عنصر « الثقة » فأقدم على القيام بأى مشروع من المشروعات وأحط هذا المشروع بجو من الثقة فماذا يكون مصيره ؟ إنه النجاح الذى يبلغ الشأو ، ويقترب من الذروة ، والتشكيك عامل من عوامل الهدم ، وبلبلة الخواطر ، وتخلخل كيان المجتمع .

لقد تحدث إلىّ مسئول من المسئولين عما لمسه من محاولة الكثيرين منا التشكيك فى الآخرين وأن الأعم الأغلب منا يعمل ما وسعه العمل لهدم غيره من الأشخاص ؛ أما التعرض لهدم العوج فينا ، والمنحرف من تراثنا للصالح العام ، ومحاولة إقامة بناء جديد فلا أثر لذلك حتى بتنا فى حيرة من أمرنا ، وكأننا لا نحس بالثورة التى هزت الأركان المتداعية ، وقوضت العظام النخرة ، وأحالتنا خلقاً آخر ، ونشأتنا نشأة أخرى .

فأجبته بأنه يكفينا هذا الإحساس الذى نحسه ، وهذا الشعور الذى بتنا فيه فإنه هو الذى سيعمل على حسر هذا المد الغامر ، واجتثاث هذا المرض الخبيث .

(٤)

النفاق

مرت مصر بأحقاب طويلة ذاقت فيها مرارة الاستعمار ، وامتحنت بسيطرة الأجنبى الذى حاول فيما حاول أن يقرب إليه طائفة من مرضى القلوب والنفوس ليستعين بهم على السلطان ، والضغط على الجمهرة الشعبية — وقد تعرضنا فى كتابنا « مصر بين ثورتين » للحديث عن أمر هذه الفئة التى أعانت قوات الاحتلال على مفاجأة الجيش المصرى فى مواقعه لتشله عن الدفاع والمقاومة .

وكانت مصر أيضاً تحكم بسلالات أجنبية قربت إليها نفراً من المصريين آثرتهم بالنعمة ، وأضفت عليهم الألقاب وجعلت لهم نفوذاً باطشاً فى مناطقهم .

هاتان الفئتان استعانتا بكل الوسائل والأساليب لإضعاف روح الشعب المعنوية ، والتفريق بين الصفوف المتكتلة .

ثم كانت الأحزاب والحزبية وتطاحن الجماعات فى سبيل الظفر بالسلطان ، وما تبع ذلك من تقريب وإبعاد ، وتوهين قوة المقاومة والصلابة والمجاهدة .

فى مثل هذا الجو الفاسد من التطاحن والتحزب يزدهر خاق النفاق ويترعرع ، وتكثر طوائف المنافقين وأهل الزلفى فرأينا ناساً ينقلبون بين عشية وضحاها ولا يكادون يثبتون على رأى ، وترتفع أسهمهم فى كل عهد ويسيرون فى كل موكب ، ويقتاتون على كل مائدة .

والحق أن الثورة المصرية الأخيرة قد كشفت لنا النقاب عن كثير من هؤلاء المخادعين فمنذ خيل إليهم أنهم يستطيعون بوسائلهم المصطنعة أن يخادعوا رجال الثورة الأحرار وأن يسيروا فى موكبهم الحافل الرائع كما فعلوا بالأمس .

ولكن الثوار كانوا قد ضاقوا ذرعاً بأمثال هؤلاء فأبعدوا الكثير منهم عن قافلتهم الحافلة الناشطة فلم يعد لهم مكان فيها لأنها قافلة لا تعرف الانحراف ولا تؤمن بالتلون ولا تعرف البهلوانيات والسير على الحبال .

إنهم فئة مؤمنة حقًّا قد تربت على العمل الصامت المجدى المثمر — وتنفست فى جو اليقين والإخلاص وحصنت نفسها من الخداع والنفاق .

إنهم فئة أشبه ما يكونون بالأشجار الفارعة السامقة ذات الجذوع القوية ، والجذور الواغلة فى التربة ، فكيف تقوم إلى جانبها النباتات الهزيلة المتسلقة التى لا تستطيع الوقوف على جذع متين فارع ؟

لقد أراد أكثر هؤلاء المنافقين أن يتقربوا إليهم وأن يدعوا الإخلاص والوفاء ولكن نياتهم ما لبثت أن تكشفت وظهرت عارية أمام الجميع فأخذوا يتوارون الواحد إثر الآخر حتى طويت صفحة الكثيرين منهم ، وتخلصت البلاد من لولبتهم ، وتميعهم .

* * *

ولكن هل قضى نهائياً على هذا النفاق ؟ أظن من المغالاة أن نذهب إلى هذا القول ، فلا يزال هذا الخلق يعيش بيننا وإن حد منه ، وضيق الخناق عليه ، فالثورة لم تجاوز الأعوام الثلاثة إلا قليلا وهى فترة قصيرة لا تقضى على خلق واغل ، وطبيعة عاشت على الزمن طويلا .

فما مظاهر هذا النفاق اليوم . . . ؟

لعل أول مظاهره عدم إبداء الرأى فى صراحة تامة فى غير جلية أو تظاهر مع أن «الدين النصيحة» فالرأى الصريح المدعم بالدراسة والاستقصاء رأى جدير بالاحترام والتقدير ، وقد أفضى إلىّ رجل له ماضيه وقلمه فى أول الحركة الثورية الأخيرة بما وصل إليه حال رجالنا من التفكير ، فقد أخذ مدبر الثورة الرئيس جمال عبد الناصر يستطلع وجهات نظرهم فيما ينبغى أن يكون عليه نظام الحكم واحداً بعد آخر ، وإذا الجميع لا يكشفون عن رأى صريح بل يحاولون أن يوكدوا له أنهم يؤيدون اتجاهات الثورة أيا كانت .

قد يعزى هذا إلى ما اعتراهم من ذهول المفاجأة ، أو ما تملكهم من خوف ، وفى كلتا الحالين يكون من العسير أن نعدهم رجالا بحق لأن الواجب عليهم أن يفضوا برأيهم كما يعتنقونه فإن الأمر ليس أمر أشخاص وإنما هو أمر مبادىء ، وفى الأخذ والرد والجدال ، والمناقشة من الذى سيفيد؟ إنه الوطن ولا شىء غير الوطن فسيذهب الأشخاص والمبادئ باقية .

ونرى هذا أيضاً فى مصانعة المرءوسين للرؤساء وعدم مكاشفتهم بما يعتقدون خوفاً من أن يطوح بهم أو يقصوا عن مناصبهم مع أن ذوى الرأى لا يحفلون بما يصيبهم على أن يكونوا على حق أو ما يعتقدون أنه الحق .

بل إن هذا العهد الحاضر قد كفل للمرءوسين من الضمانات ما يمكنهم من أن يظهروا رأيهم ، وقد عرف لبعض المرءوسين آراءهم السديدة واستمع إليها وإذا هم اليوم رؤساء لا مرؤسين فالمواهب لا تخفى ولا تخبو وأنها لتتألق مهما يوضع فى طريقها . وهو العهد الذى قضى على بعض مظاهر النفاق فألغى الألقاب والرتب واقتلع جذور التبجيل والتفخم والإغراق فى التعظيم حتى لا يشعر المواطن بضعف أو إذلال .

* * *

وقد تلمس هذا النفاق فى الأسرة بين الزوج وزوجه ، بين الأب وابنه مع أن المكاشفة والمعالنة بالأمر خير من المداجاة والتعمية .

وتدركه فى هؤلاء الذين يقفون على باب الرؤساء ، ويحاولون التقرب منهم ، والتعرف إليهم والسير فى ركابهم وإن يكن ذلك على حساب كرامتهم .

إن هناك متخصصون فى الجرى وراء ذوى النفوذ ، ومحاولة مصادقتهم وملازمتهم ، فلأدنى مناسبة يقيمون لهم المآدب أو يقدمون إليهم الهدايا أو يجاملونهم مجاملات رخيصة .

وتلمسه صريحاً فيما يكتب الكاتبون أو ينقد الناقدون فلن ترى نقداً صحيحاً ورأياً منزهاً عن الغرض ، فكل يتعصب لطائفة ومذهب من المذاهب لا لرأى يقنعه ، ولا لحق يراه وإنما لغرض فى نفسه وهدف يسعى إليه.

فطالع أية صحيفة تعرض لك أو أى كتاب قد أخرجته المطابع حديثاً فى النقد فلن تجد الصراحة والترفع عن الهوى التى هى أول سمة من سمات الناقد .

فهذا الناقد يشايع الكاتب لمأرب من المآرب فيتحمس له ، ويدافع عنه ولا يكاد يجد ثغرة فيما كتب أو سطر.

وفى هذا الجو الفاسد ظهر كتاب لا يستحقون الظهور ، وضيع ناس كان من حقهم الحياة وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ إننا لم نجد فى مصر من يقدر الناقدين أو يثق فيما يذهبون إليه .

ومن النفاق تملق غرائز الجماهير ، وظهور الانحرافات الفكرية جرياً وراء الشهرة العابرة والمجد الكاذب .

* * *

على أننا بدأنا نتخلص من هذا الشر المستطير إلى حد ما ، فقد عمد قادة الثورة إلى إشاعة العزة والكرامة فى نفوس المواطنين وفحص شكاوى المغبونين والبت فيها فى سرعة وحزم مما سيكون له أثره العميق فى التخفيف من هذا المرض الاجتماعى المزمن .

هذا إلى جانب ما يعرض على الشباب من سير ذوى الرأى ممن لاقوا عنتا فى سبيل دعوتهم ، ونشر الدراسات النفسية المبسطة التى تهدف إلى منح الحرية الكافية للأبناء ليدلوا برأيهم ومشكلاتهم إلى الآباء ، وإحكام الرقابة على ذوى المناصب المتصلين بالجمهور حتى لا يعبثوا بميزان العدالة فتقوى دولة النفاق وفهم مبادئ الثورة على حقيقتها واستمساك كل بحقه فى نصح المسئولين على الوضع الذى حددته من قبل .

كل أولئك سيكون له أثره العميق فى أن نتخلص من هذا المرض الذى يعوق نهضتنا ، ويردنا طويلا إلى الوراء .

(٥)

« الانا » و« نحن »

الأنا أو « حب الذات » خلق يتجلى فى كل تصرف من تصرفاتنا ، أو مسلك من مسالكنا ؛ فتظهر فى كتابة الكاتب ، وتدور على لسان المحدث ، ويتسم بها كل عمل من أعمالنا ، ويرد بعض الاجتماعيين هذا الخلق إلى أثر طبيعة العربى الذى تقوى فيه نزعة التفرد ، أو روح التعصب للقبيلة ، تلك الروح التى كانت تطل برأسها بين آن وآخر فتثير الفتن والقلاقل وتؤلب القبائل والبطون .

وتاريخ الجاهلية حافل بآياتها ودلائلها ولم يخمد هذه النزعة إلا الدستور الإسلامى الذى أنفذ بروحه فى عهد النبى عليه السلام وأغلب الخلفاء الراشدين وقليل من الولاة والحكام المسلمين فكيف استطاع هذا الدستور أن يجمع هذه القلوب المتنافرة ، وأن يقمع هذه النزعة المتغلغلة ؟ استطاع بتحويل عصبية القبيلة إلى عصبية الدين .

ومن أجل هذا حارب أبو بكر المرتدين ، وأقام عمر دعائم حكمه على العدل والمساواة وقضى على العصبية أو حمية الجاهلية .

* * *

وبالاتحاد وإنكار الذات قويت شوكة الإسلام والمسلمين ، وانتشر الدين فى سرعة لم يعهد لها مثيل .

فقد حض الإسلام على الوحدة والتعاون فى كثير من الآيات القرآنية

والأحاديث النبوية «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » — « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . « وتعاونوا على البر والتقوى» و « إنما المؤمنون إخوة » و « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » و « المسلم أخو المسلم . . . » .

* * *

وبقمع هذا الخلق الموهن لكيان المجتمع استطاع النبي عليه السلام مع قلة من المؤمنين الأولين أن ينتصر فى تلك المعركة التاريخية الأولى التى تعد بحق من المعارك الفاصلة فى التاريخ الإسلامى وهى « غزوة بدر » .

ففى التكاتف تقوية للروح المعنوية ، وتضحية الفرد بنفسه فى سبيل المجموعة الصابرة المقاومة لون من شرف الكفاح وقوة المراس ، كما فى قوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . وقوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

* * *

على أن استقراء التاريخ ، واستنطاق وقائعه وأحداثه دلنا على أن سمو الهدف وشرف الغاية لهما وزن كبير فى التعاون والتساند ، واستهانة الفرد بحياته ؛ فكل دعوة من الدعوات قامت على هدف كريم وغاية نبيلة ، وتماسك قوى كتب لها النصر والانتشار ؛ فالاشتراكية وعدت الطبقة

الكادحة بأن يكون لها فى الحياة نصيب وقد كانت كما مهملا لا يؤبه له ، ولا يفكر فى حياته أو فى مماته .

والإسلام وعد المؤمنين المتقين بالجنة وبحياة أفضل من الحياة الدنيا « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

فهذا هو النبى عليه السلام يشكو إليه بنو جحش بيع أبى سفيان دارهم التى بمكة بعد أن آثروا صحبة الرسول وهاجروا معه إلى المدينة فيقول الرسول لعبد الله بن جحش . . ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها فى الجنة ؟

قال . . بلى . . قال . . فذلك لك .

ولعل روح الإيثار التى أشبع بها المسلمون الأولون تتجلى بأروع مظاهرها فى الواقعة التالية .

روى حذيفة العدوى قال .. « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ؛ ومعى شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه فإذا أنا به فقلت . . أسقيك ؟ فأشار إلىّ أن نعم ؛ فإذا رجل يقول . . آه فأشار ابن عمى أن أنطلق إليه بالماء ، قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت . . أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال . . آه . . فأشار هشام أن أنطلق إليه به ، فجئته به فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين » .

وبهذه الروح آوى الانصار المهاجرين ، وأنزلوهم ديارهم ، وقاسموهم

زادهم ، وعوضوهم عن أرضهم ووطنهم فلم يشعروا بغربة أو هجرة حتى عادوا إلى مكة وطنهم الأول بعد الفتح المبين .

وقد استطاع النبي بقوة شخصيته ، ونفاذ بصيرته وبعد نظرة أن يخلق من مجموعة القبائل المتناحرة المتناثرة أمة قوية الشكيمة ، مرهوبة الجانب عزيزة الشأن، تندفع إلى الأمام بقوة اليقين وعظيم الإيمان؛ تندفع من غير أن تتلفت يميناً أو شمالا لترى دماء الشهداء وأشلاء القتلى ؛ لأنهم يؤمنون بأنهم لم يموتوا ما دامت فكرتهم حية ، وألويتهم منشورة ، وسيجزيهم ربهم الجزاء الأوفى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

وحرصت الدعوة المحمدية على الإبقاء على هذا الخلق ، خلق التعاون والشعور بأن حياة الفرد إنما هى للمجموع بما سنته من صلاة الجماعة ، وفرضته من زكاة ، ودعت إليه من صدقة ، وأمرت به من أداء فريضة الحج وطالبت به من إيواء الشريد فى المسكن الفائض عن حاجة المالك ، وحضت عليه من التكتل والتجمع لدفع العدو الغاصب والمحافظة على راية الإسلام .

ولكن هذا الخلق عاد ففشا فينا ، وعدنا إلى حمية الجاهلية الأولى ؛ فالفرد يضع مصلحته فوق كل مصلحة، تلمس ذلك فى خلق التاجر والموظف والعامل وصاحب العمل وفى الرئيس قبل المرءوس ، وتحسه فى المجتمع ، فالقوى يتغلب على الضعيف ويأخذ حقه من غير أن يردعه

رادع ، والظالم يعتدى على المظلوم المغلوب على أمره ، والعامل مهضوم الحق ، والأجير مقتر عليه فى الرزق ، والفقير لا يرعى والمسكين يداس .

مثل هذا المجتمع المتخلخل لن يتماسك إلا إذا جعل كل حاكم شعاره قول أبى بكر الصديق « أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ؛ الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى » .

فالغنى ينزل عن بعض ماله ، ويتخلى عن شىء من رفاهيته ليطعم جائع ، ويعيش إنسان ، والحاكم يضحى براحته ولذاذاته ليقيم العدل بين الناس ، ويمشى بينهم بالسوية ، والمعلم يسعى جهده ليدفع عن الشعب غائلة الجهل ، ويزيل غشاوة الأمية ، ويهديه سواء السبيل ، « فالعلماء ورثة الأنبياء » .

والوالد يبذل قصاراه فى تربية أبنائه ؛ فيضحى براحته وهناءته وملذاته ليشعروا بالأبوة الصادقة ، ويحسوا بأن أقرب الناس إليهم يعنى بأمرهم ، ويرعى شئونهم ، ويأسى لأساهم وينشرح صدره لنجاحهم فى الحياة .

والطبيب يغلب جانب الإنسانية فيطب للفقير كما يعنى بالقادر ، ويأسو جراح المكروب كما يمسح برفق علة الميسور .

والتاجر يرقب الله فى ربحه ، فلا يغالى ولا يداجى حتى يكون ماله حلالا ، ولا ينتهز فرص الغلاء وشح السلع فى الأسواق ، فيزيد النار ضراماً والغلاء اشتعالا ؛ حباً فى الثراء العريض والمال الوفير فى غير رحمة بالفقير أو تخفيف عن مسكين ذى مسغبة أو يتيم ذى متربة .

ولكن كيف نتحلى بفضيلة الإيثار وقد تظاهرت علينا طبيعة العصر ووراثة الجنس وثعلبة الغاصب ، وركام من الأحقاد ، ورواسب غرائز السيطرة والتملك وحب الذات ؟

* * *

أما طبيعة العصر فعلى الدولة أن تحشد جهودها لتقتلع هذه الروح المدمرة بتقوية الوازع الديني ، وفرض العقوبة الزاجرة ، وتشديد الرقابة على ذوى القلوب المريضة ، ومصادرة أموال المرتشين والمثرين ثراء فاحشاً عن طريق كسب غير مشروع بتطبيقها تطبيقاً دقيقاً صارماً قانون « من أين لك هذا ؟ » وقد كفتنا حكومة الثورة مئونة هذا العمل العظيم .

والأخذ بالشدة والحزم كل من ينحرف عن الجادة ، ويستهين بمصلحة البلاد العليا فلا يرى وجوداً غير وجوده ، ولا ذاتاً إلا ذاته . وقد أخذت نظرية التضامن الاجتماعى لدوجى تؤصل هذه القاعدة من أنه « لا يجب عمل أى شيء يضر بالتضامن الاجتماعى مع وجوب عمل كل ما من طبيعته تحقيق اطراد هذا التضامن » .[١]

وإلى جانب القوانين الرادعة نعمل على رفع مستوى العيش للطبقات الكادحة ، وتخفيف موجة الغلاء ، وتشجيع الهيئات الاجتماعية والجماعات الدينية لينطبع روادها على الإيثار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وعلى المشاركة الوجدانية ومحبة الخير لبنى الإنسان .

* * *

وأما وارثة الجنس فلنتغلب عليها بشرف الغاية ونبل المقصد ، الغاية

---

(١) مبادىء القانون الدستورى للدكتور السيد صبرى ص ٢٥ .

التى نسعى إليها جميعاً لنعيش كراماً ونحيا كراماً .

إنها فناء الفرد لحياة المجموع ، إنها النزول عن بعض ما نرغب لنقاوم الصعوبات التى تحيط بنا والأحداث التى تنوشنا ، والقوى الخفية التى تعمل على سحقنا ، وتمزيق وحدتنا .

* * *

وأما ثعلبة المتربصين بنا وما أكثرهم فهدفها الأول إيقاع الانقسام والاضطراب فى الدولة بخلق المشكلات وإثارة الفتن وإغراء بعضنا ببعض ، ووضع العقاب فى طريق وحدتنا فإذا فشلت فى الداخل أغرت بنا غيرنا لإضعاف روحنا ، وقهر معنويتنا .

وقد فطنا إلى هذا المكر السيىء فقوينا صفوفنا الداخلية ، وأصبحنا قوة متماسكة ثم عملنا على تحطيم مناوراتها وتفويت مآربها بخرق هذا الحصار المضروب علينا ، وتقوية جيشنا ، وترويج بضاعتنا .

* * *

وأما الرواسب التى تفعل فعلها فى النفس البشرية ؛ الرواسب التى تقوى أصول الأثرة وتعمق مجراها فى الطبيعة الإنسانية ؛ فإذا تسامينا بها فى تربية أبنائنا وشبابنا خلقناهم خلقاً آخر ، وبعثناهم بعثاً أقوى وأقوم .

فالأثرة تقوى نوازعها بإغراق الآباء فى تدليل أبنائهم ، والاستجابة لكل مطلب لهم ، زاعمين أن هذا إشفاق على فلذات أكبادهم ، وبر منهم بأطفالهم وهم لا يعلمون أن الطفل ماكر خبيث يعرف نقطة الضعف فى والديه ، ويحاول استغلالها إلى أقصى الحدود .

فالطفل المدلل دائم الطموح والعويل إذا حيل بينه وبين أتفه الأمور ؛

إنه يندفع فى تياره ؛ فيحاول أن يسيطر على والديه سيطرة تامة وأن يكون الآمر الناهى والحاكم المطاع ، فأمه يجب أن تنام إلى جانبه وهو لا ينام إلا إذا ناغته أو هزت مهده بيديها .

واللعبة المشاعة ليس من حق أخيه أن يستمتع بها لحظات .

ولا يقتصر على طعامه الذى يقدم إليه بل يتحيف نصيب والديه ، ويغير عليهما ، ويغار من كل طفل ويبكى من كل نصح .

مثل هذا الطفل إذا وجد صدى لصيحاته فى المنزل فكيف يواجه واجب المدرسة ؟ وكيف يخضع لقانونها ؟ وكيف يعيش فى وئام مع رفاقه فيها ؟ وكيف تكون حياته فى المجتمع ؟ إنه يعمل على أن يستأثر بكل شىء وألا يقنع بشىء .

إنه يعيش فى حرب مع نفسه وحرب مع أفراد المجتمع ، ومثل هذه النوازع هى التى ينبغى أن تستأصل؛ سواء فى المدرسة أو فى المنزل فيكون شعار المربى قول الشاعر الحكيم .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحيـاناً على من يرحم

وليس معنى القسوة الشدة والعقاب البدنى ، وإنما النصح والزجر والعقاب الملائم؛ وعلى المربى أن يقف من الطفل موقف الحكمة ، فيحزم أمره معه إذا لج به العناد وغالى فى مطلب له وأن يعدل بينه وبين إخوته وأخواته فيما يطرفهم من لعب ، فلا يختص أحدهم بلعبة أو يميز ابناً على آخر بل أن يكون شعاره التسوية بين الجميع وأن يجعل لعب أطفاله بالدور عندما تكون اللعبة مشاعة كالحصان الهزاز أو الدراجة وذلك لغلاء ثمنها .

وبمثل هذه الحلول يستقر العدل فى نفس الأبناء فلا يجنحون إلى الأثرة فى تصرفاتهم أو يسيطر عليهم عامل الحقد فى معاملاتهم .

وواجب الآباء أن يكونوا قدوة لأبنائهم فى العطف على المحتاج ، والأخذ بيد الضعيف والحنو على صغار الأطفال وامتداد الحب والرفق إلى عوالم الحيوان والطير ، وأن يجعلوا من الصبى شفيقاً على الطفل والكبير حانياً على الصغير والبصير قائداً للكفيف ، والرجل عطوفاً على المرأة .

إنهم إن فعلوا أوجدوا أسساً صالحة للتواصل والتراحم ومحبة العالم الإنسانى والكون الالهى .

وهنا تبدو تربية الطفل الوحيد مشكلة من المشاكل ، ولذا يحسن بوالديه أن يذهبوا به إلى دور الحضانة أو يهيئوا له فرصة اللعب مع أقرانه فى المسكن المجاور « فالطفل عن الطفل ألقن » كما يقول الإمام الغزالى .

إن الطفل يتأسى بقرينه ، ويتعلم عنه فى سهولة ويسر ، وباجتماعهما يستطيعان حل مشاكلهما بنفسيهما ، ومن غير تدخل من أحد .

* * *

والمدرسة تستطيع أن تنهض بدور خطير للتغلب على هذه النزعة ، فلا يميز تلميذ على آخر إلا بالمثابرة والجد ، ولا يطغى تلميذ قوى على آخر ضعيف فإن فعل رد إلى صوابه فى حزم .

وعليها ألا تمكن للطالب الأثر حتى لا يثير الفتنة ، ويؤلب الشغب ، ويبعث الفوضى وأن تكثر من المشروعات والجماعات المدرسية التى تقوم على التعاون والانتفاع بكل مجهود وأن تطبع تلاميذها بطابع الخلق الرياضى الذى لا يؤمن إلا بالتعاون ولا ينهض إلا به ، فجماعة كرة القدم اللاعب

الأثر فيها وان كان مقتدراً يفسد على اللاعبين لعبهم وقد يلحق بفريقه الهزيمة والانكسار .

مثل هذا اللاعب ينبغى أن يرد أولا فإن لم يرتدع ينذر بالفصل ، فإن ظل على خطته يفصل فى غير رجعة .

فالغرض الأسمى من تكوين هذه الفرق تكاتفها للوصول إلى غرضها وهو النصر المبين والمدرسة يمكنها أن توقظ ضمائر تلاميذها بما تضرب لهم من مثل وما تروى لهم من قصص وتسرد لهم من وقائع يستاقون منها روح الإيثار ، ونفحات التضحية ولفحات العمل المضنى فى سبيل المجموع .

والمدرسة تستطيع أن تفيد من رواسب غرائز السيطرة والملك ، وحب الذات ، فتوجهها توجيهاً سديداً ، فالسيطرة عن طريق رئاسة الفرق وجماعات النشاط وتزعم صغار الأطفال لإرشادهم وتقويمهم سيطرة محببة . وتملك الكتب النافعة ، واقتناء التحف الجميلة والصور الرائعة تملك نافع مفيد.

وحب الذات بالنفرة من خدشها وإهدار كرامتها وعدم الانتقاص من شأنها ، والانطباع بطابع الترفع عما يشين أثره كريمة مرغوبة .

أما الأثرة التى رسمنا قبل خطوطها ، وأتينا على ملامحها فهى التى نحاربها حرباً لا هوادة فيها حتى نشفى من أخطر الأدواء التى تنخر فى عظامنا ، وتهد كياننا ، وتعوقنا عن السير فى الركب الحضارى العظيم ، فنجعل شعارنا قول القاضى الأمريكى لندهاند « إن روح الحرية هى الروح التى تضع مصالح الغير فى كفة الميزان ، ومصالحها فى الكفة الأخرى بغير تحيز ولا محاباة » .[1]

---

(١) مبادىء القانون الدستورى ص ٧٤٢ .

٣ ـ قوة التحرر والانطلاق

وهذه قوة أخرى تتحكم تحكماً قوياً فى مجتمعنا ، ولعلها كذلك فى كل مجتمع ؛ إذ أن كل أمة من الأمم تتجاذبها قوى رجعية ، وإلى جانبها قوى تقدمية .

والمجتمع الناهض هو الذى تتغلب فيه القوى الأخيرة ، وتزيح من طريقها رواسب الماضى المتخلفة ؛ ومصر قد بدأت أخيراً تحس بأن قبضة القوى الرجعية تكاد تخنقها وتشلها عن التقدم والأخذ بأسباب النهوض حتى تساير التمدين العالمى الحديث .

وقد أتينا قبل على هذه المعوقات والقوى الهدامة فلنأخذ الآن فى استعراض قوى التحرر التى بدأناها من زمن وجيز بالنسبة إلى تاريخ الأمم الطويل .

فإذا كانت المرأة المصرية قد أمست طويلا قعيدة الدار لا تكاد تبرحه ، مضيقاً عليها فى التفكير والتعليم والعمل، فإنها اليوم قد أسفرت عن وجهها ، وبارحت المنزل إلى المدرسة وإلى ارتياد المجتمع ، وإلى منازلة الرجل فى ميدان العمل ؛ تراها اليوم فى الجامعة طالبة ومدرسة وفى المستشفيات ممرضة وطبيبة ، وفى المكتب وفى المصنع وفى الحقل تنهض بما ينهض به الرجال من غير أن تئن أو تضعف .

والظروف الاجتماعية التى أحاطت بها قد أجبرتها على أن تسلك هذا

السبيل وألا تختار لنفسها ؛ فزحمة السكان وضيق العيش ، واحتكاكنا بالغرب وتغير نظرتنا إلى الحياة وأن كلامنا مجند فى ميدان العمل وأن العصر الحاضر بمطالبه والتزاماته قد أرادها على خوض معركة الحياة .

بل إنها قد أضحت اليوم تتدرب تدرباً عسكرياً بحتاً ، وأن تجند فى الحرس الوطنى لتؤدى ضريبة الدم ، كالرجل سواء بسواء .

على أنها قد أخذت تطالب بما يطالب به الرجال فتكفل لها جميع حقوقه بل إن بعضهن قد غلا فى ذلك فطالب بتغيير اللغة وأن تحذف نون النسوة و « الألف والتاء » من جميع المؤنث السالم حتى لا تشعر بأى فارق بينها وبين الرجل حتى فى اللغة ؛ وامتنعت النساء كذلك من أن تقبل من الرجل أن يتخلى عن مكانه فى السيارات العامة لأن هذا فيه كما تقول — إشعاراً لها بضعفها وهذا مالا تريده ولا ترضاه .

وتطالب كذلك بأن تمنح جميع الحقوق السياسية ، وأن يكون لها صوتها فى التشريع وفى القضاء وفى كل منحى من مناحى الحياة .

ولعلها تطالب كذلك بالتجنيد الإجبارى والانخراط فى سلك الجيش العامل بل تطالب بأن تكون من الفدائيات لتحارب فى الصفوف الأولى وقد مضت فى هذه السبيل .

وربما يرجع غلوها إلى المعاملة السيئة التى تعامل بها من الرجل ؛ من تعدد الزوجات وتطليقهن لأوهى الأسباب ، والقسوة عليها ، والحجر على تصرفاتها ، وحرمانها من الميراث المكفول لها بالكتاب والسنة ، وتضييع حقوقها المشروعة استغلالا لضعفها ، وعدم وجود رأى عام قوى يقف إلى جانبها ليؤيد مطالبها المكتسبة .

والحق أن المرأة لها صناعة كصناعة الرجل وهى صناعة التربية ، تربية الأبناء والإشراف على المنزل حتى لا يضيع أو يغرق فى لجة الانحلال ، فمكانها الأول المنزل .

ثم إذا رأت أن هذه الصناعة لا تكفى ضمان عيش كريم لها اتجهت إلى العمل خارجه فتمتهن المهنة التى تواثمها ، أو إذا تحيفها الزمن فلم تتزوج أو تزوجت ومات عائلها أو طلقت فإن مكانها لن يكون المنزل وحده حتى لا تموت جوعاً أو تعيش عيش الكفاف أو الاستجداء . . .

هذا هو الوضع المعقول ، وهو الذى تأخذ به مصر اليوم أو تسير فى الطريق إليه .

* * *

وإذا كنا فى الماضى قد أغلقنا باب الاجتهاد فى الدين ، ولم نعمل بسنن التطور وتغير الملابسات والأحوال ، حتى جمدنا فى مكاننا ووقفنا حيث كنا بل رجعنا إلى الوراء إلى يوم أن كان فلاسفة الإسلام يلقون عنتاً بل يلقون جلداً وسجناً وقتلا ، وأصبح الحديث فى الدين ومسائله حديثاً كله حرج وقيد ؛ وإذا كنا كذلك فى الماضى البعيد والقريب فقد أخذنا اليوم بعوامل شتى نتحرر فى إسراف من هذه القيود وإذا بعض أعلامنا كالدكتور طه حسين يدعو فى غلو إلى أن نتناول أصول الكتاب الكريم بالدرس والمراجعة حتى أخرج كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى أحدث ضجة فى محيطنا العلمى والسياسى وقد صودر الكتاب ، وعدل المؤلف عن رأيه هذا ، وحور الكثير منه حتى لا يتعرض لشر مستطير .

وأعقب ظهور هذا الكتاب مؤلف آخر أذاعه الأستاذ على عبد الرازق

بعنوان « الإسلام وأصول الحكم » أنكر فيه الخلافة الإسلامية وعدم وجود سند لها من الكتاب والسنة ، وقد أحدث هذا المؤلف كسابقه هزة عنيفة فى الرأى، وقام حوله جدل كبير ولقى المؤلف فى سبيله ما يلقاه أحرار الكتاب فى عهود الجمود .

وليس يعنينا أن نظهر خطل هذين المفكرين فى آرائهما ، وإنما يعنينا أن نسجل مقدار ما أصاب المجتمع من هزات بسبب ما أذاعا فى الناس، وعلى الأخص فى محيط الشباب المثقف .

وبين حين وآخر نرى هجمات من رجال الدين أنفسهم ومن غيرهم على الأصول الإسلامية وهى هجمات إن تركت ندوباً فلم تبلغ من الغالبية الشعبية ذات العقائد الراسخة .

* * *

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية شاهدنا موجات من الإلحاد فى بعض الشباب المثقف الجامعى ، تارة فى ثوب الشيوعية وأخرى فى ثوب الوجودية ، سواء فى هذا شباب المدرسين أو شباب الطلاب .

ولا شك كما قدمنا أن الحروب المدمرة تشهد فى أعقابها هذه الظاهرة كما حدث فى أوربا وأمريكا وفى أغلب أنحاء العالم وهناك أمور أخرى مساعدة على رواج أمثال هذه الصيحات فى بعض الممالك؛ كضعف العقيدة الدينية وانحراف بعض رجال الدين وانخفاض مستوى المعيشة ؛ وإخفاق بعض الشباب فى أن يكون لهم كيان ووجود وإغراؤهم بالمال من دعاة هذه المذاهب أو تلك .

ومصر الثورة لا تؤمن بمثل هذه الدعوات المقوضة لدعائم الإصلاح

فالوجودية تذهب فى أعماقها إلى التحرر ، وعيش الفرد عيش القطيع أو السائمة ولا تكاد تؤمن ببعث أو نشور ، وتمنح الناس حرية أقرب إلى الفوضى بل هى الفوضى بعينها ، ودعاتها اليوم من منحلى الخلق الذين لا تربطهم بمجتمعهم رابطة، ونماذج أبطالهم من ذوى الشذوذ الجنسى أو الضعف النفسى .

وإن أخطر شىء على مجتمع يبغى النهوض من عثرته التى طال عليها الزمن، ويحاول البناء على أساس مكين وطيد مثل هذه الفوضوية التى إن آمنت بالفرد فلا تؤمن بالجماعة وإن تعاونت فلا تتعاون على البر والتقوى ولكن على الإثم والعدوان .

* * *

قد تكون الوجودية مذهباً فلسفياً ولكن مذهب هدام تحاربه الأديان جميعها والمجتمعات الناهضة وأنظمة الحكم السليمة .

فالحرية شىء ، والفوضى شىء آخر .

والدولة التى تبغى النهوض وتصدق النية عليه ، يعوقها أمثال هذه المذاهب « كالسريالزم » ومذهب اللذة « الأبيقورى »

* * *

والمذهب الشيوعى أيضاً ينكر الأديان ويتحلل منها ويراها خدراً للشعوب ، وتنويماً للطبقات الكادحة .

وهو مذهب أيضاً ينكر الأسرة ويكاد يلغيها من الوجود ، فالطفل ليس ابناً لأبيه وإنما هو ابن المجتمع ، مما يقضى على العواطف الإنسانية والحنان الأبوى .

وهو مذهب يعادى الملكية والتملك ويميت روح المنافسة الشريفة الكريمة .

وهو مذهب يقضى على كثير من مقدساتنا ومواضعاتنا ويخنق حرياتنا ويسلبنا إرادتنا ويتعارض ومبادئنا وقومياتنا فإذا قاومنا تطرفه وأخذنا عنه ما يتسق وظروفنا وهو ما جعلناه دستورنا من اعتناق اشتراكية معتدلة تؤمن بحق الفرد وتذكر له جهده وتوفر له حريته ودينه ومعتقده وفى الوقت نفسه ترفع مستواه وتعرف له حقه ، وتخفف عنه وتؤمنه ضد البطالة والمرض والشيخوخة ؛ ونبذنا منه ما لا نرضاه لأنفسنا كنا على حق ولم نجاوز الصواب .

(٣)

تطور الوعى الاجتماعى

قبل أن نتحدث عن هذا التطوير ينبغى أن نوجه إلى أنفسنا سؤالاً هو : متى بدأ فى مصر الحديثة هذا الوعى الاجتماعى؟

إن المصرى قبل الحملة الفرنسية كانت ذاتيته ملغاة ، وكان مسخراً من الحاكمين والإقطاعيين تفرض عليه الضرائب من غير أن يؤخذ رأيه وتمص دماؤه وتسلب أرزاقه ، وتنهب متاجره وتنتهك حرماته ، من الجنود المرتزقة والأجناس الوافدة ، وعاش المصرى عيش القطيع يسكن بيوتاً من اللبن والصفيح ؛ وقد لا يجد مأوى فينام على قارعة الطريق وقد تفيض روحه تحت سنابك الخيل الجامحة .

فهل تستطيع أن تقول أن الشعب المصرى كان ذا وعى اجتماعى فى هذه الحقبة ؟ . أظن لا ولعل أقوى دليل على اعتياده هذا الوضع أن الحملة الفرنسية عند ما قدمت إلى مصر أخذت تتدخل بعض إصلاحات اجتماعية حفاظاً على الصحة العامة فقوبلت من المصريين بالثورة والهياج فإذا أدرنا آلة الزمن إلى الأمام نرى بذور الوعى قد بدأت تظهر فى عصر إسماعيل عند ما وفدت علينا الحضارة الغربية عن طريق الأجانب الذين استقدمناهم ، أو عودة البعوث المصرية من الخارج فأبحنا للفتاة أن تتعلم وإن كان ذلك فى أضيق دائرة يتصورها العقل ، وأقمنا المساكن الحديثة وفتحنا الشوارع الواسعة وأدخلنا القطار البخارى وأوجدنا المسارح ودور اللهو واستقدمنا الفرق الأجنبية للتمثيل والرقص وانتشرت الصحف وكثرت المطابع وقرأ المثقفون منا آراء الغرب الحديثة ، وما حملت من مذاهب وأنظمة تقدمية .

كل هذا كان له أثره فى تكوين بذور الوعى الاجتماعى وإن لم يكن وعياً قوياً لأنه اقتصر على العاصمة ولم يجاوزها إلى غيرها .

ثم كانت الثورة العرابية وهى وإن كانت ثورة سياسية إلا أنها كانت تحمل مبادىء ثورة اجتماعية أيضاً فهى ثورة على استعباد الحاكم الأجنبى للمحكومين ، وهى ثورة المصرى العريق على التركى الدخيل وهى محاولة لأن يصبح المصرى سيد نفسه لا عبداً لغيره ، كما اعتقد توفيق فى حديثه إلى عرابى وهى إشعار للمصرى بأن له كرامة ومن حقه أن يسمو إلى أرفع المناصب .

وفى أعقاب هذه الثورة أخذ الزعماء يكيفون وجودهم تبعاً لظروف الاحتلال وانتهى بهم الأمر إلى أن يعمدوا إلى الإصلاح حتى يستطيعوا

محاربة الاحتلال وإجلاءه عن البلاد ، وهذا الإصلاح يقوم فى طبيعته على الدين الإسلامى ومبادئه وآرائه أو بعبارة أدق يستمد كيانه من روح هذا الدين حتى إن قاسم أمين عند ما نادى بتحرير المرأة، وسفورها وتعليمها فى كتابيه الثوريين « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » دعم وجهة نظره مستدلا بآيات من القرآن وأحاديث للرسول عليه السلام وما كانت عليه المرأة فى العصور الإسلامية الأولى وما قدمه إلينا الإسلام من إعزاز وإكرام.

وإن يكن قاسم أمين فى ثورته هذه متأثراً بالمرأة الغربية وما وصلت إليه فدعا إلى هذه الدعوة ولكنه أراد أن يقف على أرض ثابتة وأن يجعل لرأيه سناداً من القوة حتى تلقى هذه الدعوة رواجاً ويقبل عليها المصريون فلم يجد مندوحة من الاستعانة بالتعاليم الإسلامية ، وكان من الممكن أن يقول إن هذا ما كانت عليه المرأة المصرية فى عهد بناة الأهرام أو أن هذا وضع المرأة الغربية فى المجتمع الذى كان له السبق والفوق على مجتمعنا ولكنه لم يفعل لإحساسه بقوة الدين وسيطرته على نفوس المصريين فى ذلك الوقت شأنه فى ذلك شأن غيره من المصلحين.

ولم تذهب صيحة قاسم أمين فى الهواء بل فعلت فعلها على الأيام وإن لقيت معارضة جامحة من الرجعيين وما أكثرهم فى ذلك الوقت، وتعلمت المرأة المصرية وأسفرت النقاب عن وجهها وزاحمت الرجل فى كل الميادين وأضحت نسبة البنات فى التعليم الثانوى ١٦,٤٪ وفى التعليم الابتدائى ٣٧,٩٪ وفى الإعدادى ٢١,٦٪ وفى المعاهد العليا والكليات ١٠,١٪ حسب إحصاء ٥٤–١٩٥٥ وهى نسبة لا شك أنها تبشر بخير عظيم .

* * *

ونحن حتى اليوم ما نزال نؤمن بسلطان الدين على النفوس وبخاصة الكتلة الشعبية فكل إصلاح نعمد إليه نحاول أن نجد له أصلاً في الدين الإسلامى . وأقرب مثال على ذلك أنه عندما أقدمت حكومة الثورة على تحديد الملكية إذا نحن نرى بعض رجال الدين يصدرون أبحاثاً يؤيدون فيها هذا الاتجاه ويؤيدونه بسوابق إسلامية وأصول من مذاهب الأئمة . هذا على الرغم من تقدم علم الاجتماع فى بحوثه وما نشر منها فى محيطنا وتستند إلى آراء علماء الاجتماع العالميين من أمثال جوستاف لوبون ودركيم.

* * *

بل إننا رأينا كثرة من الكتاب أخذت تحلل المبادئ الإسلامية وتردها إلى مذهب من المذاهب القائمة الحديثة أو بعبارة أدق ترد المذاهب الحديثة إلى التعاليم الإسلامية وهى تفعل ذلك حين تبحث فى أنظمة الحكم وفى التشريع والتقنين وفى المبادىء الاقتصادية وفى المذاهب الاجتماعية مع أن الدين الإسلامى لم يترك إلا أصولا عامة حتى يدع مجالا لعاملى الزمان والمكان ، وحتى يتكيف وضع البشر بظروفهم الاجتماعية الخاصة وهى حكمة تعلو على كل الحكم والأفهام فلم نعنى أنفسنا هذا العناء ؟ ولم نأخذ فى الجدال والنقاش ؟ .

ولم نضيق على أنفسنا وقد وسع الله علينا ؟

ومعنى ما تقدم أن بذور الوعى الاجتماعى حملها إلينا الغرب ، وأن الهزات الاجتماعية التى حدثت فى مصر إنما أوحى بها اتصالنا بالتفكير الغربى ولكن ما مظاهر هذا الوعى ؟

مظاهره تبدو فى محاولة رفع مستوى معيشتنا الهابط ، بالتخفيف من حدة البطالة والإقلال من النسل ، وتحديد سن الزواج ، وجعل حد أدنى للعامل والصانع ، وإنشاء صناديق التأمين والادخار للموظفين والعمال وتوفير الخدمات الاجتماعية وإقامة مشروعات عمرانية ، وتصنيع البلاد فلم تعد موارد الزراعة كافية لسد حاجاتنا الاجتماعية التى ازدادت فى عصرنا الحاضر نتيجة لتقدم الوعى وتوسيع الرقعة الزراعية والعمل على إيجاد أسواق خارجية لصناعاتنا ومحصولنا الزراعى والاكتفاء باستيراد المواد الضرورية من الخارج ، والدولة تعمل جاهدة فى هذا الصدد حتى لا تضيق بنا أرضنا ووقاء لنا من الهزات الاجتماعية ذات العواقب الخطيرة .

ويبدو هذا الوعى فى تكوين النقابات الصناعية والزراعية لتحافظ على حقوق الطبقة العاملة من أن تغتصب ، وتعين العاطل والمريض وتتقدم بأنجع الوسائل لتدعيم أسس النهضة فى ميدانها وتشارك فى الحياة العامة مشاركة حقيقية فعالة .

ويبدو كذلك فى انتشار جمعيات التعاون التى تبث روح الجماعة والتماسك ، وتعمل على تقدم المجموع وتزويد الأعضاء بأحدث الآراء والآلات لزيادة الدخل ورفع المستوى .

وهو يتجلى فى التخلى عن كثير من عاداتنا ومواضعاتنا وخرافاتنا كخلع « الطربوش » وانتشار الزى الإفرنجى حتى بين بعض رجال الدين

واستعمال الشوكة والسكين فى طعامنا ، وإقامة العمائر التى تضم الكثيرين والاكتفاء « بتشييع الجنازات » واختفاء « الزار » والتداوى « بالوصفات البلدية » وإيماننا بالسبب والمسبب وأن لأغلب الأدواء دواء ، ولم نعد نرى « الأحجبة » و « التعاويذ » بالكثرة التى كانت عليها ، وقل تمسح الناس بأعتاب الأولياء وذوى الكرامات وأصبحنا نؤمن بأن الله هو الرازق وهو واهب الحياة وأن المخلوق مهما يكن فلا صلة له بالرزق أو إطالة الحياة أو قضاء المصالح ، أو رد الغائب أو إعادة الزوج إلى زوجه ؛ وهو الوعى الاجتماعى الذى يطالب الدولة بمزيد من العناية والرعاية للمواطنين يطالب بنشر التعليم وتكافؤ الفرص ، وبتوفير المسكن الصحى وإقامة المستشفيات وتزويدها بالدواء وجعلها صالحة للعلاج وبتأمين الحياة المستقبلة للعامل والأجير .

وهو الوعى الاجتماعى الذى يطالب بزيادة الضرائب على الدخول الكبيرة ، فيكون للكسب حداً أعلى إذا تجاوزه صاحب العمل رد إلى خزينة الدولة .

وهو الوعى الاجتماعى الذى يطالب بتنفيذ النظام الاشتراكى روحاً ونصا حتى تتقارب الدخول فلا يعيش مواطن من غير أن يجد قوت يومه على حين يعيش آخر عيشة المترفين المكتظين .

فكفى هذا الوطن ما قدمه من ضحايا الفقر والمرض .

وهو الوعى الاجتماعى الذى يطالب بالقضاء على التسول والتشرد والتكاسل وعيش بعض الأفراد عالة على المجتمع من غير أن يؤدوا عملا

صالحاً ، والإكثار من الملاجئ وإقامة مكاتب للأحداث لتشغيلهم في الورش والمصانع والمتاجر والانتفاع بجهد كل فرد من أفراد الدولة .

وهو الوعي الاجتماعي الذي دفع المواطنين إلى أن يظاهروا النظام القائم ؛ لأنه يؤمن بالنظام الاشتراكي ويعمل له ويسعى لتوطيده وتثبيت دعائمه وقد أثبت بهذا نضجه ومقاربته الكمال .

وهو الوعي الاجتماعي الذي يدرك ويوازن بين المذاهب الاجتماعية المتباينة التيارات والدوافع فيعرف المنحرف منها والمستقيم ، والمعتدل والهدام فيقبل على المذهب المؤدي إلى تماسك المجتمع وترقيته ونهوضه ويبعد عما عداه مما يحمل جراثيم الضعف والتدهور والانحلال .

الوعى الثقافى

١

ماذا نعني بالثقافة ؟

الثقافة التي أعنيها ليست بمعناها الواسع من أنها خلاصة التراث الإنساني في عصر من العصور أو النتاج الفكري والفني لأمة من الأمم ، ولكن الثقافة التي أعنيها في هذه الفصول هي المستوى الملائم الذي ينبغي أن يصل إليه الفرد في عصره ، بتوسيع دائرة معارفه حتى يقف على أحدث التطورات العالمية في العلم والفن إلى جانب تبحره في نوع المعرفة التي تخصص فيها وأوقف حياته عليها .

فلا يعد الدارس للون من المعرفة وإن كان ضليعاً فيها مثقفاً لأن هناك فارقاً بين المعرفة والثقافة إذ أن الثقافة أعم فتشمل الفن والمعرفة ، والثقافة ، ألوان من المعارف ومن هنا كان المثقف والمهذب مترادفين .

وعلى هذا النحو من الفهم نعالج الثقافة في مصر ، وتطورها ، وجهودنا في حقلها .

والأمة تقاس حضارتها بما وصلت إليه من الجهد الثقافي وما تبذله في هذا الميدان ؛ ومن هنا كانت الأمم المتحضرة سخية في تنشيط الثقافة وإعانة المثقفين وهداة الحضارة لا تضن عليهم بمال أو تشجيع .

ومصر قد خطت خطوات في هذه السبيل وإن تكن لما تزل في

أشواطها الأولى ؛ فمجمعها اللغوى وإدارة الثقافة العامة والثقافة الشعبية ولجنة جائزة الدولة واللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية إلى جانب جهود الهيئات كلها تبذل الجهود لرفع المنسوب الثقافى للشعب وتوجيهه توجيهاً مسدداً .

وقد يكون هذا التقديم فيه نوع من التعميم فلنبحث الآن القدر من الثقافة الذى ينبغى أن يلم به الإنسان ليكون مثقفاً حقاً ، والذى وصل إليه الكاتبون فى هذا الصدد هو أن يقف الفرد على تاريخ العالم والتطور الحضارى منذ أن كانت البشرية ويكفى أن يقرأ فى هذا الصدد كتاب ولز « معالم تاريخ الإنسانية » أو « قصة الحضارة » لول ديورانت أو «تاريخ العالم » الذى ألفه متخصصون عالميون وكذلك الاطلاع على تاريخ أمته والتيارات المختلفة التى أثرت فى اتجاهاتها الفكرية والسياسية والاجتماعية ، والتبحر فى الفن الذى تخصص فيه وأوقف حياته عليه وجعله مصدر عيشه أو شهرته ، ومتابعة الأحداث التى تجرى فى عصره والوقوف على المذاهب والآراء التى تصطرع فى عصره ويموج بها محيطه ، والتزود من أى فن من الفنون الجميلة كالموسيقى والأدب والرسم . . .

ومعنى هذا أن الرجل المثقف يجدر به أن يجعل له غذاء روحياً إلى جانب غذائه المادى فلا يمر به يوم أو ساعة فراغ إلا وقد اطلع على بحث من البحوث أو فن من الفنون ويجد نفسه مقصراً أو متخلفاً إذا لم يتابع نشاطه الذهنى فى يوم من الأيام أو وقت من أوقات الفراغ بل عليه أن يخلق هذا الوقت كما يخلق وقت طعامه ونومه .

وهو الذى يجد لذاذة فى القراءة والقراءة المثمرة والقيام بالتجارب

والبحوث ومتابعة الجديد فى المعرفة الإنسانية التى تطالعنا بين حين وآخر .

إنى لأعرف بعض المثقفين لا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم قرار إذا لم يقرأوا كتاباً أو بحثاً فى يومهم بل إنهم لا يكادون يستسلمون للنوم إلا إذا طالعوا وأشبعوا هوايتهم وغذوا أرواحهم .

وأعرف معلمين قد تصدروا معاهد العلم وأسند إليهم حق التوجيه والتثقيف لا يعرفون من هذا الحق إلا الآلية والتمسك بحرفية المنهاج وقد يكونون من الاجتهاد والنشاط ولكن يقعد بهم عن التحليق وأخذ الطلاب بالثقافة اكتفاؤهم بما ألموا به فى أثناء دراستهم العالية ، لا يكادون يجاوزونها إلى غيرها .

مثل هؤلاء متعلمون حقاً ويؤدون للدولة واجباً من غير شك ، ويرقون المناصب ويتحدثون كثيراً عن نصبهم ومجهودهم الشاق ، وما ينهضون به من أعباء ، ولكنهم ليسوا مثقفين ولن يعفيهم من ذلك ما درسوا من قبل أو ما بذلوا من جهد لأنهم لم يجددوا معلوماتهم ، ولم يتعرفوا الطريف من المعارف الإنسانية ولم يطالعوا ما يجرى من أحداث ولم يغذوا أرواحهم الغذاء الخصب الذى يزيد عقلهم ثراء وأرواحهم قوة وضمائرهم حياة .

ومن العجيب حقاً أن يتسنم ناس المراكز الرفيعة قد يكون ذلك بفعل الزمن أو بمضى المدة إن صح هذا التعبير فإذا صادفهم مثقف حاولوا أن يعوقوه وأن يطفئوا نور ثقافته ولكنهم يخفقون أخيراً لأن بضاعتهم قليلة ومعرفتهم ضحلة لا تكاد تثبت أمام المعرفة العميقة الخصبة التى لم تنقطع بها السبل .

ومن تجاربى فى هذا الصدد ما وقع لى وأنا مدرس ناشئ مع أحد

المفتشين الأعلام من الاختلاف على لفظين استعملتهما وأنكرهما علىّ ، هذان اللفظان هما « التوفز » و « المسعد» أما اللفظ الأول فكان اعتراضه عليه أنه لم يفهم معناه وإذا كان استعماله صحيحاً فليس من الذيوع ، أما اللفظ الآخر فلم يدر أن استعماله صحيح وأنه بمعنى المعين أو المساعد .

مع أن هذين اللفظين قد استعملها أدباء معاصرون ، وشعراء مشهود لهم بالثراء اللغوى وبخاصة الكلمة الأخيرة .

ولم يعفنا من الجدال واللجاج إلا المعجم واستعمال الكلمة الأولى فى كتاب حديث مقرر على الطلاب فى الفصول العليا .

ومن المؤسف حقاً أن نرى فى وقت من الأوقات من يواتيهم الحظ ليكونوا قوامين على الثقافة وهم من الذين لا يمكن أن نطلق عليهم لفظ « مثقفين » فتمتحن الثقافة على أيديهم ويتوقف دولابها عن النتاج وفى هذا خطر أى خطر على الشباب المعاصر الذى يتجه وجهات أخرى فيها إيذاء للذوق والفكر والسلوك ؛ فمن المسلم به أن الثقافة العالية الناشئة فى عصر من العصور توجه إلى حد كبير سلوك الأفراد فى هذا العصر بعد أن تتغلغل فى نفوسهم وتصطبغ بها عقولهم .

ومن الغريب أن السلوك الإنسانى إذا أرخى له العنان جنح وطاش سهمه وأقدم على أمور أقرب إلى الخبل والتهوس نرى هذا واضحاً فى عصور الانحلال وضعف الثقافة .

والثقافة بالمعنى الذى قدمناه بين يدى هذا الفصل هى التى سنتناولها بالدراسة وإن كان علينا أن نذكر أن قراءة الصحف والاختلاف إلى دور التمثيل والسينما لا تعد الرجل المثقف الذى نعنيه ؛ فأغلب الجمهور

يقبل على الصحافة إقبال الرجل الملول الذى يريد أن يسد فراغاً أو يشبع رغبة عابرة من رغباته وأغلب الجمهور يختلف إلى دور اللهو ليمتع نفسه ويقضى وقتاً لذيذاً هنيئاً بعض الشيء ، وقد عرفت الصحافة هذه الرغبة فى الجمهور وانتهى المطاف بدور اللهو إلى ما انتهت إليه الصحافة فجدد ذلك من اتجاهها ورسم لها خطتها وباعد بينها وبين الثقافة الحقة ثقافة الكتاب .

إنه ليحزننى أن أرى الإقبال الشديد من الجمهور المعاصر سواء فى الغرب أو فى الشرق على نوع من الصحافة ونوع يماثله من المسارح حتى بات ذلك خطراً أيما خطر على الثقافة الخصبة التى تزيد فى ثراء الإنسانية وخلود تراثها .

ولعل الشعوب الحائرة القلقة التى أجهدتها الحروب وميادين القتال والغارات البشعة تئوب إلى نوع من الهدوء النفسى لتتوفر على القراءة الممتعة والقراءة العميقة ؛ القراءة الخصبة لتختفى أزمة الكتاب ويروئ الأدباء فيما ينتجون وما يذيعونه فى الناس فيمحى ذلك الأدب الضحل ليبقى الأدب الخالد ، الأدب الذى يستشف النفس الإنسانية ويتعمق أغوار البشرية فيحيا من جديد حياة فيها لذة العقل وهدوء النفس وراحة الضمير .

حينئذ تختفى من عالمنا هذه الفقاعات التى أخذت تطفو فى العصر الأخير وليست على شىء وتدعى أنها كل شىء وتحمل فى رأسها معاول الهدم وتفتقد أداة البناء بله إعلاء الصرح .

ونكون رأياً عاماً مثقفاً يحكم على الأمور بروح العلم ودقته وموازناته وتجاريبه ؛ فلا ينساق وراء العواطف والأهواء ولا يتقلب بين العواصف والأنواء بل يكون راسخاً رسوخ الطود فيواتيه الحكم السديد والرأى الصائب .

٢

مقومات الثقافة فى مصر

مرت مصر فى تاريخها الطويل بأطوار من الحضارة وعاشت فيها ثقافات مختلفة تمثل هذه الحضارات ؛ فهناك الحضارة الفرعونية التى تضرب جذورها فى أعماق الماضى السحيق حتى بعد ما بيننا وبينها وكادت صلتها تنقطع عنا وبخاصة قبل أن يطالعنا العصر الحديث بفك طلاسم اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين .

ثم كانت أخريات هذا العهد فاستطعنا أن نزيح الرماد عن أكفانها وأن نكشف بعض ما خفى منها وأن نعيد عصرها الزاهر وأيامها المشرقة ! فإذا أدباؤها وعلماؤنا يتناولون هذا التاريخ الدارس بالاستقصاء ، والكشف والتجلية ، وإذا نحن نقف على بعض أدبهم ؛ قصصهم ومعتقدهم ومجتمعهم فنتوافر عليه بالدرس والإضافة ، ليوافق ذوق العصر وروحه فرأينا أمثال عبد القادر حمزة وسليم حسن وحسين هيكل ومحمد عوض محمد يعرضون علينا بعضاً من تاريخهم ويستلهمون أحداثهم وطرائق معيشتهم وتراثهم فيما ينتجون من فن لا شك أنه استهوانا وملك علينا بعض إحساسنا .

وقد غلا بعض كتابنا كسلامه موسى فدعا إلى أن نستهدى الثقافة الفرعونية وأن نقبل عليها وأن نجعلها أساس ثقافتنا .

وإذن فى مصر ثقافة فرعونية تستلهم حياتنا الأولى وما كانت عليه من تقدم فى العلم والفن .

ومصر قد عرفت الثقافة اليونانية طويلا بعد أن اتصلت باليونان وكانت الإسكندرية مناراً للمعرفة، لها علماؤها وأساتذتها وتخرج فيها أفلوطين ذو الفلسفة المعروفة باسمه .

ثم بعدت الصلة بينها وبيننا بعد غزو الثقافة الإسلامية ولكن ما إن قامت الحضارة الحديثة واعتمدت فى تراثها على تلك الحضارة الإغريقية واستلهمت فنها وأدبها وفلسفتها ودرستها دراسة تعمق واستوحتها فترة طويلة من الزمن حتى أعادت إليها رواءها وجاذبيتها بعد أن جعلتها مصدراً من مصادر ثقافتها .

واتصلت مصر بالحضارة الحديثة سواء فى ديارها أو فى خارجها وكان الاتصال شديداً فى آخر العهد بنا فأخرجت الروائع الإغريقية وترجمت المصادر اليونانية الأصلية كالألياذه والأودسا وعرفنا هوميروس وسوفوكليس ويوربيديس ودرسنا سقراط وأفلاطون وأرسطو وانتبهنا إلى ما لم ينتبه إليه أجدادنا ووقفنا على ما لم يقفوا عليه من علم وفلسفة وفن ومعتقد .

وأحدث كل أولئك هزة فى الثقافة الحاضرة ، ولم يعد مثقف يهمل هذه الثقافة الإغريقية إن لم يعتمد عليها فى أسلوبه أو مناهجه .

ثم انتقلت إلينا الثقافة العربية ، بلغتها ودينها وأدبها وتاريخها وتشريعها وأسلوبها فى الحكم والسياسة وكان سلطانها فى مصر عظيماً وخطرها قوياً حتى عفت على غيرها من الثقافات وظلت إلى يومنا هذا الثقافة الأولى والمنبع الأول الذى نستقى منه فى حاضرنا ولم تستطع ثقافة أخرى أن

تزلزلها أو تأخذ مكانها أو تنزلها من عليائها، وأصبح تاريخ العرب تاريخنا ولغتهم لغتنا ودينهم ديننا فهم منا ونحن منهم سواء بالدم أو المصاهرة ، وأملت الظروف على مصر أن تكون زعيمة العالم العربى وبالتالى حاضنة التراث الإسلامى إلى أن كان الحكم التركى الذى أخذ ينشر اللغة التركية وجعلها اللغة الرسمية ؛ فهزت بعض الشىء من كيان الأسلوب العربى وشهدت مصر فى تاريخها أظلم العصور التى مرت بها وبخاصة على ثقافتها العربية وتسطيع أن توازن بين كتابة الدواوين فى ذاك العصر وبينها اليوم لتقف على الهوة السحيقة التى تفصل بين الكتابتين وتدل على جهل عميق بالأسلوب العربى الرصين .

فإذا كانت النهضة المصرية الحديثة تطلعنا إلى بعث المصادر العربية القديمة سواء فى الأدب أو فى التاريخ أو فى الفلسفة أو فى العلوم الإسلامية، وأتيح لمصر فى هذا العصر كتاب وشعراء نابهون استطاعوا فى يسر أن يردونا إلى المنابع الثرة والحقول الخصيبة ، فإذا ثقافتنا تعود من جديد أيام أن كانت عليه فى عصورها الذهبية الرائعة .

وفى هذا الوقت قامت محاولات لإحلال لغتنا العامية محل اللغة العربية زعماً من الداعين إليها أنها لغة الحياة والواقعية ، لغة الفن والأدب ، ولكنها محاولات على الرغم من اقتدار الداعين إليها قد باءت بالفشل والخذلان وأصبحت الآن فى خبر كان .

لم ؟ لأن وضعنا السياسى يحتم علينا أن نقف من هذه الدعوة موقف المعارضة والمعارضة الشديدة حتى لا نفقد مجالنا السياسى والحضارى وحتى لا نباعد بيننا وبين تاريخنا الحافل فنقع فى الخطأ الذى وقع فيه

الأتراك عندما أحلوا اللاتينية محل العربية .

ونحن بشيء من التعقل نستطيع أن ندخل الألفاظ الذائعة على الألسنة محل الألفاظ التى لا نستخدمها إلا حين نكتب ، وهى ألفاظ من غير شك عربية صميمة وإن لم يخلها الكثيرون كذلك .

ولأضرب أمثلة لبعض هذه الكلمات ، فمثلا نستطيع أن نستعمل « استنشأ » الأخبار أى تتبعها و (البراح) بمعنى المتسع من الأرض و « اللغد » بمعنى لحمة فى الحلق و « المسعور » أى الحريص على الأكل وإن كان مليئاً و « الأفز » أى القفز و « الحوش » بمعنى فناء الدار و « خششت » فيه أى دخلت و « المورم » أى الرجل الضخم و « العَمْلة » بمعنى السرقة والخيانة ..

إذا نحونا هذا النحو من البحث خرجنا بنصيب وافر من الألفاظ الذائعة الصحيحة الاستعمال وصارت اللغة العربية لغة المسرح والخطابة والإذاعة والصحافة وتجنبنا فى الوقت ذاته هذا الحرج الذى نستشعره حين تكون اللغة العامية لغتنا الرسمية .

ويمكننا كذلك إذا بحثنا بحثاً آخر اختزال ألفاظ اللغة والإقلال بعض الشيء من القاموس اللغوى المتضخم الناشئ عن الجمع من غير تمحيص والذى جعل للأسد ما يقرب من مائتى اسم وللجمل كذلك وقضينا إلى حد ما على المترادفات التى تبهظ الناشئين وتعقد اللغة على متعلميها وأحداثنا .

ويا حبذا لو أخذ مجمعنا اللغوى هذا الأمر على عاتقه وأخرج لنا قاموساً ميسراً مختصراً مهذباً اختار فيه الألفاظ الذائعة بدلا من الألفاظ

البذيئة والتى تعد فى حكم الميتة فهو بهذا العمل يؤدى خدمة جليلة للغة العربية وللأجيال الناشئة والقادمة .

ومصر لم تنهض نهضتها الحاضرة إلا بعد أن مرت باحتلالين ، الاحتلال الفرنسى والاحتلال الإنجليزى وتعرضت مع هذين الاحتلالين لغزوين ثقافتين ، غزو لاتينى وآخر سكسونى وأراد الاحتلالان أن يبعدا عن مصر ثقافتها العربية ، وأن يحلا محلها الثقافة الغربية سواء اللاتينية أو السكسونية ولكن الدين الإسلامى الذى ملك على الناس إحساسهم ونفوسهم والثقافة العربية المتغلغلة فى أطوائهم لم تمكناهما من إحداث هذا التغيير وإن أصبحتا من الروافد للثقافة المصرية الحاضرة .

فرواد الفكر المصرى الحديث جلهم إن لم يكن كلهم قد حذقوا هاتين الثقافتين أو إحداهما ودرسوهما دراسة تعمق وتفهم واتصلوا بأهلهما اتصالا وثيقاً سواء فى مصر أو فى الخارج فكان أن اصطنعوا الأسلوب الغربى ولقحوا الثقافة العربية بالثقافة الغربية فصارت أكثر ثراء وأعظم قوة .

بل إن بعضاً ممن لم يحذق الأسلوب الغربى قد درسه على هؤلاء أو عن طريق الترجمة فاحتذاه فى كتابته وأخرج روائعه العربية على النهج الغربى الحديث وسنأخذ بشىء من التفصيل فى الحديث عن هذا الأمر فى فصل قريب؛ وقد أدى التواصل بين مصر والأمم العالمية المتحضرة فى هذا إلى أن نطالع ثقافات هذه الأمم وأن نتزود منها ما شاء لنا التزود وأن نتابع أحدث الآراء والمذاهب وأن نقف على الجديد فى الفن والعلم والمعرفة من غير تفرقة بين أمة وأخرى وإن كان الغالب فى الثقافات العالمية الآن الثقافة الأمريكية والروسية عدا ما ذكرنا من الثقافات .

وإذن فمقومات الثقافة فى مصر يمكن أن نردها إلى الروافد الفرعونية والإغريقية والعربية الإسلامية والغربية الحديثة التى تتمثل فى الثقافات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وأخيراً الأمريكية ولا نجاوز القول إذا قلنا الثقافة الروسية المعاصرة .

٣

الثقافة المصرية

كما أنه ليس للحضارة حدود فليست للثقافة كذلك حدود ؛ فمن التجوز المحض أن نقول هذه ثقافة عربية وتلك إغريقية فالثقافات كالحضارات تنبع من أصل واحد ويأخذ بعضها عن بعض ويحاكى بعضها بعضاً إلا أن لكل ثقافة طابعاً خاصاً وسمة مميزة كما (يكون الأمر بين كاتب وكاتب وأديب وأديب) .

فالثقافة وإن ارتدت إلى منهج واحد فإن ثقافة الأمم لها بعض الخواص التى تميزها عن سواها فمما لا ريب فيه أن الثقافة العربية لها طابعها وللكاتب العربى أسلوبه ونهجه فى التفكير وإن يكن ذلك إلى حد محدود.

فالثقافة العربية تمتاز فى أغلب عصورها بالارستقراطية أو دورانها حول الحاكم وذوى السلطان ؛ فالشعر العربى أغلبه مديح للأمراء والسادة وذوى الجاه ، والتاريخ العربى يغلب عليه طابع الحديث عن الحاكمين وإغفاله إغفالا يكاد يكون تاماً أحوال الشعب والمجتمع .

ونراه كذلك يشوبه شوائب العصبية والزيف .

والتفكير العربى يدور حول اللفظ أكثر ما يدور حول الفكرة أو المعانى ، ولذا كان أغلبه ضحلا هشاً نرى ذلك جلياً فى الأدب العربى وفى النقد الأدبى العربى ونراه كذلك فى ظهور القصة فى ثوب « المقامة »

والملهاة والسخرية اللاذعة فى « بخلاء » الجاحظ ويمكنك أن تحكم هذا الحكم وتخرج بهذه الحقيقة إذا وازنت بين « بخيل » موليير و « بخلاء » الجاحظ .

وأنت واجد هذا الرأى إذا عرضت لنقد الفن العربى فهو فن زخرف يقوم على التكرار والإسراف فيه حتى لا يترك فراغاً وهى الظاهرة التى يعبر عنها اللاتينيون « بالفزع من الفراغ » . Horror vacui

وأنت واجد هذه الظاهرة فى إغراق الأدب العربى بألوان البديع والمحسنات اللفظية .

وتلمسه كذلك فى موسيقاه وغنائه القائمين على التكرار والرتابة وعدم التنويع والتلوين والتنسيق التى نراها فى « السيمفونيه » الغربية .

والفلسفة الإسلامية لم تتحرر التحرر الكامل ، ولم تنطلق الانطلاق المرجو لأنها لم تستقل عن الدين ولم تخرج إلى دائرة العلم ولأن لفظ « الفلسفة » قد اقترن غالباً فى عصور العرب التاريخية بالكفر أو الإلحاد أو الزندقة ، مما دعا الكثيرين إلى أن يطووا آراءهم ويكتموا تفكيرهم ؛ أما الأقلية النادرة فقد لقيت من جراء التفكير الفلسفى العنت والزراية من الجماهير المتعصبة كما حدث لابن رشد حين أوقفوه على باب المسجد ، وأخذوا يبصقون على وجهه لتحرره الفكرى الدال على جبروت عقله .

وإذا كان الأمر كذلك فى الثقافة العربية التى نعدها المصدر الأول لثقافتنا فكيف يكون مصير ثقافتنا إن كانت لنا ثقافة ؟

وقبل أن نجيب عن ذلك نرى من الحتم اللازم أن نجيب على

سؤال آخر وهو ألمصر ثقافة خاصة ؟ ثقافة متميزة كالثقافة اللاتينية أو السكسونية ؟

الجواب عن هذا جد عسير لأمور منها أن الثقافة كما قلنا وبخاصة فى هذا العصر من المتعذر ردها إلى أمة بعينها لزوال الحواجز بين الأمم بعضها وبعض ، واتصالها الدائم بطرق أو بأخرى وأن مصر لما تزل فى بدء صحوتها الفكرية فقد بدأت تتحرر نوعاً ما فى مستهل القرن العشرين أى أنها لم تقطع من أشواط نهضتها إلا أقل القليل فى تاريخ الأمم والشعوب بالإضافة إلى ما كانت ترسف فيه من أصفاد وقيود باعدت بينها وبين الانطلاق .

فهى إذن فى مرحلة التكوين ولم تبلغ بعد مرحلة الاستقرار والاشعاع الثقافى ذى الخصائص المميزة الأصيلة ، وهى فى دور بنائها تقوم ثقافتها على المقومات التى ذكرناها فى الفصل السابق فهى تستلهم فى نتاجها التاريخ العربى الحافل بالبطولات والمصادر الإسلامية الأولى كالقرآن الكريم فأخرج العقاد « العبقريات » الإسلامية وطه حسين « على هامش السيرة » وتوفيق الحكيم قصصه ومسرحياته أخص بالذكر منها . « أهل الكهف » .

ومصر لها تاريخها الخاص وأمجادها الرائعة ، مصر الإسلامية منذ أن كانت إلى يومنا الحاضر والتفكير المصرى له خصائصه المستمدة من تاريخه الطويل وجوه السافر وحضارته العريقة ومرونته الفذة وروحه العلمى الذى تجلى فى التقويم والهندسة والطب .

فامتدنشاطنا إلى تخليد أمجادنا وتجلية أبطالنا والتأريخ لثوراتنا وتحررنا

من مدح الأمراء والأغرار من الملوك الطغاة .

وتخلصنا أو كدنا نتخلص من أدب الارستقراطية إلى أدب الاشتراكية أى أدب الشعب والواقعية .

وإذا مصادرنا تتسع وتتسع حتى لا تضيق بنا الدائرة فحذونا فى تفكيرنا حذو تفكير الأفذاذ العالميين وهداة الثقافة الحديثة فى أى زمان وجدوا وفى أى عصر عاشوا من غير إنكار لذواتنا أو طغيان على شخصياتنا .

فتجد فى القصة مثلا من يحاكى من الكتاب تولستوى الروسى ومن يأخذ عن ديكنز الإنجليزى أو جوته الألمانى .

ولكن فيم الاحتذاء ؟ فى الأسلوب فى المنهج فى البناء ، أما الفكرة أو الأحداث أو الوقائع فروحها مصرية أو أقرب إلى المصرية .

وفى التشريع نأخذ عن التشريع الإسلامى وعن التشريع الفرنسى وعن التقنين الرومانى بما يوافق ظروفنا وحياتنا ومجتمعنا .

وفى العلوم لا نزال فى طور التكوين فقد نكون أخذنا بعض سماتنا فى الفنون ولكنا لمّا نزل نحبو فى الميدان العلمى فقد سبقنا إليه بأشواط بعيدة التفكير الغربى العتيد فلم نعرف الكيمياء فى عصرنا الحاضر إلا منذ الحملة الفرنسية ثم ضربت علينا الحجب فلم نعد نرى ما يحيط بنا إلا أن يقدم إلينا من مصانع الغرب ومعامل أوربا ومع هذا فالبوادر تبشر بخير فقد اشتركت مصر أخيراً فى أبحاث الطاقة الذرية وأخذ علماؤنا يمهدون للجيل القادم طرائق البحث والكشف ونرجو أن تصل فى يوم قريب إلى ميادين الكشف والاختراع .

في هذا الدور ينبغي أن نستوعب كل ثقافة وألا نتعصب لأية ثقافة مهما تكن صلتنا بها فالتعصب جمود وركود بل إنه انتكاس .

فكيف نرى عالماً يحيط بنا يتقدم في ناحية من النواحي ثم لا نأخذ عنه تقدمه حتى نسبقه أو على الأقل نجاريه ؟

إن أهم خطر ينبغي أن ندفعه بكل ما فينا من جهد التعصب لثقافة من الثقافات . إننا اليوم في طور التكوين فلنتعلم ولنتعلم ولنتثقف ولنتثقف حتى نرتوي ونقف على أقدامنا فإذا نحن من هداة البشرية وإذا نحن من طلائع الحضارة الإنسانية .

فهل في مصر ما يعين على هذا المنهج ؟ هذا ما أعالجه بعد .

٤

معوقات النهوض بالثقافة

١ – الأمية

لعله يكون من الحديث غير المعاد أن نذكر أن الحياة السياسية القاسية والهزات العنيفة التى مرت بها مصر قد أوجدت فيها نوعاً من القلق وعدم الاستقرار ، هذه الحياة التى فرضت عليها أن ترزح طويلا تحت وطأة الاستعمار أو الاحتلال أو الانتداب فظل الشعب يكافح بقواه المكتملة هذه القوى الطارئة حتى جهد ولغب ولم يعد فيه ذماء مدخر يقوى به على رسم الخطط القويمة ، وإقامة الدعامات الثابتة للنهوض الفكرى أو على أقل تقدير القضاء على الأمية الهجائية ولا ينسى المؤرخ هنا تعقب السياسة الاستعمارية لخطوات المصلحين بالتعويق وحصرها فى أضيق نطاق حتى لا تندفع عجلة التثقيف أو التقويم إلى الأمام؛ فمن المقطوع به أن الذلة لا تكون حيث التفتح العقلى .

ثم هذا الإيحاء العجيب الذى عمدت إليه سياسة الاحتلال من إيهام أولى الأمر من الوطنيين بأن نشر التثقيف والتعليم على نطاق واسع مما يهدد النظم الاجتماعية ويحدث ثورات انقلابية أو على الأقل يقضى على

الطبقة العاملة التى سترفع بالتعليم عن أن تباشر الزراعة أو الصناعة فتنقرض طبقة الاجراء؛ فعادى أمثال هؤلاء من ضيقى العقول والافهام كل حركة تدعو إلى تكافؤ الفرص أو نشر التعلم بين الطبقات الفقيرة .

بل إن إغداق هذه السياسة — أى سياسة الاحتلال — على قلة من الوطنيين ذوى العصبية أو النفوذ، الأموال والممتلكات والعمل بكل الوسائل على تجويع الجماهير أو إيجادها فى مستوى أدنى من مستوى معيشة الحيوان الأعجم صرف هذه الكثرة عن أن تفرغ لتثقيف نفسها وأبنائها أو دفعهم إلى المدارس بل كانت تلقى بهم فى أتون معركة الفقر والصراع ضد الفاقة والمرض حتى يستطيعوا أن يجدوا اللقمة التى بها يعيشون وعلى الأرض يدبون .

وآية الآيات على هذه السياسة المجحفة تلك الأمية الهائلة التى تفشو فينا ؛ فمصر التى بلغت فيها الحضارة مبلغاً يعتد به لا تزال الأمية فيها تشمل ٧٥ ٪ من السكان .

وهى حال مؤسية تدعو إلى التفكير والتفكير الطويل وقد جاهدت مصر أخيراً بعد الحرب العالمية الأخيرة لتدفع عن نفسها هذه الوصمة فأنشأت وزارة التربية والتعليم قسما خاصاً لمكافحة الأمية وألزمت أصحاب الشركات والمصانع الكبيرة بمحو أمية العاملين فيها ، وأخذت تكافح هذه الأمية بين الجند ورجال الشرطة وأوغلت فى المدن والقرى للتخلص من هذا المرض الذى أزمن وأثقل ولكنها على الرغم مما تبذل من جهود لم تبلغ الشوط الذى نريد من القضاء على الأمية فى مدى وجيز إذ ينبغى أن تعلن الحرب فى قوة وصرامة وأن تحشد كل القوى والجهود وأن تتحلل

من تعثر « الروتين » وأن تستعين بجهود جميع الهيئات والطوائف ، وأن تمنح المكافآت لمن يستطيع أن يمحو أمية أكبر عدد ممكن وفى الوقت نفسه يمنح المتعلم إجازة فى حفل يقام لهذا الغرض حتى يتنافس المتنافسون ويسرع إلى التعليم الأميون .

وينبغى أن نوحى إلى الشعب دائماً وفى كل مكان أن نور العلم من فيض الله ، وأن مجد الوطن من مجد العلم وأن الجاهل والسائمة سواء .

أما محو أمية الصغار فهو فى طريقه إلى الزوال فى القريب العاجل فمع أن التعليم فى مصر إلزام وإجبار منذ أن كان لنا دستور إلا أن السياسة التعليمية القاصرة وتعثر الأحزاب المصرية وشدة وطأة الرجعية وتعويق الاحتلال لكل تقدم ونهوض، قصر جهودنا عن تحقيق هذا الهدف الأسمى فبعض أطفالنا ما زالوا يرسفون فى نعمة الجهل إن صح هذا التعبير ولم ؟ لأن المال يعوزنا والمال دائماً هو العقبة الكئود وهو النغمة التى نرددها دائماً حين الهرب من المشكلات التى تصادفنا .

نعم فأين مصر من سنة ١٩١٧ إلى اليوم ؟

إنها لو نفذت ما جاء فى التقرير الذى وضعه وزير المعارف فى ذلك الوقت عن نشر التعليم الأولى للقضاء على الأمية التى تعوق تقدم البلاد فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمحت أمية ٨٠٪ من الذكور ، و٥٠ ٪ من الأناث على نحو ما ورد فى مشروعه .

بل لو نفذت مشروع السنوات العشر الذى وضع سنة ١٩٢٥ لقضى على الأمية فى سنة ١٩٣٥ ولكنه أضحى كأغلب مشروعاتنا حبراً على ورق

وفى كل عام تزداد جحافل الأميين الصغار وباتت مشكلتهم أعقد من ذنب الضب كما يقولون .

لو عمدت الدولة فى الماضى إلى وضع سياسة مرسومة كسياسة الخمس سنوات بأن ألزمت كل قرية أو كل مدينة بإقامة مدرسة بسيطة وافية بالغرض منها لتعليم أطفالها لما ترددت بل لأنفذتها على الفور ولو عمدت إلى تعليم الأطفال على نظام نصف اليوم كعلاج وقتى للتغلب على مشكلة المدرسين مع الاستزادة من معاهد التعليم لأتى كل أولئك ثمره السريع .

قد يقال أن سياسة نصف اليوم قد أخفقت ولكن إخفاقها يعود إلى عدم تنظيمها فلو أن الوزارة نظمت اليوم المدرسى على الوجه الآتى :

من الثامنة صباحاً	إلى الثانية عشرة ظهراً	لنصف الأطفال
ومن الثانية بعد الظهر	إلى السادسة مساء	للنصف الآخر

حيث يمنح المدرس راحة كافية وتخف عنه زحمة الفصل فلا يرهق ولا يهمل التلميذ وفى الوقت نفسه يكافأ بأجر إضافى حتى لا يشغل بالانصراف إلى عمل آخر وبخاصة أنه يؤدى فرضاً وطنياً محتوماً .

ولو أن وزارة التربية والتعليم صرفت النظر عن التغذية ونفقاتها الباهظة وجعلتها مكافأة للمدرسين ونشر معاهد المعلمين لما شكت العسر المالى وقلة عدد المدرسين فى المرحلة الأولى .

قد يقال أن أغلب الأطفال الذين يتعلمون فقراء وفى حاجة ملحة إلى الغذاء وهذا حق إلا أننا لو رفعنا مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة لكان ذلك أجدى على الوطن وأسلم عقبى بل لو قصرنا هذه الأكلة على

المحتاجين إليها لاستطعنا توفير مبلغ كبير وتبلغ نسبة الأمية الآن بين الصغار الذين فى سن الإلزام فى مصر ما يقرب من ٥٠ ٪ .

وقد وضعت سياسة ثابتة ليقضى على الأمية بين الصغار فى سنة ١٩٦٢ م حيث تستوعب المدارس جميع من بلغ سن الألزام .

على أن الذين كوفحت أميتهم فى الشرق صغاراً كانوا أو كباراً لم ينالوا حظاً من معرفة أو توجيه ليخوضوا معركة الحياة فى اطمئنان ويرجع ذلك إلى الوقت والمنهج .

أما الوقت فقد أشرنا إلى علاجه ونزيد عليه أن تكون مدة الإلزام سبع سنوات حتى ينضج الطفل ويستطيع أن يدرك وأن يعمل على الاستزادة من التحصيل والإفادة من التعليم .

وأما المنهج فلا يزال إلى اليوم متعثراً وخير علاج له مسايرته للبيئة ؛ فنى الريف تنشأ المدرسة الريفية التى تعنى بتلقين المبادئ الزراعية وإجادة بعض الصناعات الريفية وفى المراكز الصناعية يوجه المنهج إلى العناية بالناحية الصناعية ؛ فالمنهج من غير شك ظل البيئة أو أن تلحق فصول الصبيان بالمعامل والورش ومناطق الاصلاح الزراعى إلى جانب الوحدات المجمعه التى أقامتها مصر فى عهد الثورة وخطت فيها خطوات لا بأس بها .

على أن العناية بهذه المدارس لا تزال ضيئلة وأرى أن يفاجئها الوزير والوكيل والمديرون العامون بين وقت وآخر حتى يحس المدرس أن الدولة تهتم به وتوجه عنايتها إلى هذا النوع من التعليم الذى نعتمد عليه فى تكوين المواطن الصالح ، وأن تقام مجالس تعليمية فى المناطق ، من الأهلين

ورجال المعارف الفنيين ليستطيع ممثلو الأهالى فى المناطق توجيه الأنظار إلى مواطن الضعف فى مدارس المنطقة والعمل على علاجها فى الحال .

إن القراءة والكتابة أصبحتا من ألزم اللوازم للإنسان المعاصر وبغيرهما لا تتحقق الديمقراطية الاشتراكية ، المذهب الذى تتجه الدولة الآن إلى أن يسود فتوجيه الاهتمام وحشد قوى الدولة مع رفع مستوى التعليم الأولى من الواجبات الأولى واجبة الرعاية .

أما المواد الأساسية التى يجب أن تلاحظ فى برنامجه فينبغى أن تكون :

اللغة العربية — الدين — الحساب — والتاريخ القومى — وجغرافية البيئة والقطر — التربية الوطنية ، مبادئ الصحة والعلوم — الزراعة — الصناعة التى تتصل بها — الرياضة البدنية .

وأعجب ما فى الوضع القائم بالنسبة لهذا التعليم الاختلاف الكبير بين مدارسه ومناهجه ؛ فالكتاتيب أو مدارس تحفيظ القرآن والمعاهد الدينية والمدارس الحرة والمدارس الخاصة والمدارس الأجنبية ومدارس المرحلة الأولى، والمدارس النموذجية والتجريبية . . . إلخ .

هذا الشتيت من المدارس الذى ينهض بالتعليم الأساسى فى الدولة يرجع إليه فى الأعم الأغلب شتيت القلوب والعقول فى المجتمع المصرى الآن الذى نعمل على تماسكه وتقوية صفوفه حتى نجتمع على رأى موحد .

أبسط قضية من القضايا التى تتصل بالدولة فى محفل من المحافل تجد التنافر الواضح وعدم التقائه عند رأى بعينه .

حقاً إن طبيعة المجتمع المصرى وما يموج فيه من ثقافات متباينة وأديان مختلفة وما يجرى على مسرحه من تيارات متقابلة وأهواء متنازعة ، كل هذا يعمل عمله فيما نراه من تقابل الآراء ولكنا نزيد اتساع الشقة وتعميق الهوة بإيجاد هذه الأنماط فى المرحلة التعليمية الأولى ذات الأثر العظيم فى توجيه المستقبل ووضع الحجر الأساسى فى تدعيمه وتشييده .

على أن هناك أمراً لا نستطيع إغفاله فى هذه المرحلة وهو الدين وأبدأ بالجهد المبذول فى تحفيظ القرآن .

أشهد لقد عانيت فى صغرى طويلا من الألم وثقيلا من الجهد فى سبيل حفظ القرآن بترديده من غير أن أفهم لآياته معنى أو أفقه سراً من أسرار بلاغته .

إن شأنى فى هذا وشأن من عالج هذا الحفظ المبكر شأن الببغاء التى تردد ألفاظاً من غير أن تدرك لها معنى ، لعمرى لو أن هذا الجهد المبذول فى هذه السن الممعنة فى الصغر كان جهداً نافعاً فى تفهم البيئة التى حولى لتفتح ذهنى ووقعت عينى على أمور ظلت مستغلقة على وعلى أمثالى طويلا من الزمن .

لعلك أيها القارئ لم تعان ما عانينا فى صغرنا من إرهاق الذاكرة وشحنها ، فتصوركم كنا نولى وجوهنا شطر الحائط ونغلق علينا الأبواب ونأخذ فى الحفظ والترديد بصوت عال حيناً وخفيض حيناً آخر نهتز طويلا وطويلا جداً لننشط ونقوى على مجاهدة هذا العناء ومغالبته بل إننا كنا نهذى بهذه السور ونحن نيام أو بين النوم واليقظة .

ومن المضحك أننا كنا نلوك بعض الألفاظ المنبهمة علينا فنقرؤها فى التواء فإذا أسمعنا ما حفظنا كنا مثار السخرية وكان الأحرى أن ينزه كلام الله عن هذا القصور . . .

وليس هذا فحسب بل إن تجاربى فى هذا الأمر تجاوزتنى إلى تلاميذى فى المدارس الابتدائية عندما فرض على الصغار فقط أجزاء متتالية من القرآن .

لقد احتلت وزملائى كثيراً على ربط الآيات بمدلولاتها ولكنى عييت فى آخر الأمر وقصرت عن أن أبلغ ما أريد أو ما تفرضه وزارة التربية والتعليم عندما أخذتها حمى تحفيظ السور من غير ما نظر إلى المقدرتين الذهنية والجسمية .

وفى ضوء هذه التجارب أنكر على وزارة التربية التجاءها إلى قسر التلاميذ على حفظ الأجزاء مرتبة ترتيب المصحف الشريف ويحسن أن تعمد إلى القصص القرآنى وإلى السور التى تطوع فى ألسنة الصغار ونبدأ بها فى التحفيظ ثم نتدرج معهم شيئاً فشيئاً وتقيم المسابقات فى فى أوائل كل عام بين كبار التلاميذ الذين حفظوا أعظم كم من السور .

وما ينبغى أن يعلم التلميذ من أمر الدين ، أركان الإسلام الخمسة وقصص الأنبياء والمرسلين ، وسير الخلفاء الراشدين ومن سار سيرتهم فى العصور الإسلامية ، وتفسير بعض آيات القرآن الكريم وعرض كثير من الأحاديث النبوية ذات التوجيهات الخاصة والأثر الفعال فى تقويم اللسان وتقوية الجنان وثراء الروح .

وماذا نفعل بعد أن ينتهى هؤلاء الصغار من المرحلة الأولى ؟

هل نتركهم يغرقون فى كفاح دائم ثم يعودون سيرتهم الأولى من

الجهالة والعماية ؟ إن الحق والمنطق يحتمان على المصلحين أن يظلوا إلى جانب الكبار بتعهد ما يطلق عليه فى مصر — « التثقيف الشعبى » عن طريق المكتبات والسينما والمسارح المتنقلة وعقد مسابقات فى الزجل والمواليا والمطارحات الشعرية ونشر الوحدات المجمعة لتقوم على تعليم الفتيات الحياطة والنسج وأشغال الإبرة والفتيان بعض الصناعات المستحدثة أو التى لم يسبق لهم تعلمها وتزويد هذه « المجمعات » بالكتب المبسطة فى مختلف العلوم والفنون .

مثل هذا التعهد والرعاية يشعر الفرد بإنسانيته ، ويدفعه إلى أن يكون له رأى فى توجيه سياسة بلاده وفى قدرته على تخير العناصر الرشيدة التى ترفع من شأن أمته .

وهذا الشعور يهيئ للمصلح الفرصة المواتية ليتقدم إليه بمشروعات فيسيغها ويقبل عليها ويناقش فيها حتى يقف على صالحها وطالحها وبغير هذا فإن كل إصلاح يلقى شديد معارضة ولا يرجى منه ثبات أو نجاح .

ويمكن للواعظ أو رجل الدين المستنير أن يقوم بدوره فى التثقيف والتوجيه والإرشاد فهو أقرب مستنير إليه وهو ألصق الناس به فيستطيع أن يقوى من هذا الشعور فيه وبخاصة أن الإسلام يعلى من هذا الشعور ولا يتحيفه أو يهذب منه إلا إذا فقد الآدمى العقل أو الأهلية ويستطيع أن ينوره فيما يشكل عليه وأن يقوى عزمه وإيمانه ويمهد التربة لتلقى بذور الإصلاح فلا يميتها الجهل أو يضمرها التعصب الأعمى .

ولن أنتقل من هذه المشكلة الصارخة مشكلة محو أمية الصغار والكبار حتى أشير بأن تصنع الدولة لها برنامجاً صارماً ثابتاً ، لا يتقيد

بأثقال الروتين وأن تتعاون الهيئات والنقابات والجامعات والمدارس الثانوية على دفع وصمة الأمية .

وأن تكون الإدارات المتفرقة التي تعمل على محو الأمية بنوعيها الهجائية والذهنية وحدة متماسكة تشن عليها الحرب دفعة واحدة فتكافح أمية الصغار والكبار على السواء .

وتقوم على التثقيف الشعبي ما أمكنتها الفرصة وامتد بها الزمن .

ثم على وزارة التربية والتعليم أن تكثر من معاهد المعلمين وألا تضن عليها بالمال ؛ وأحب أن يكون المعلم فى المرحلة الأولى معلم فصل لا معلم مادة حتى لا تكون حدود أو حواجز بين المواد المختلفة بل يربط بينها المعلم فى تفهم لنفسية تلاميذه ووقوف على ميولهم واتجاهاتهم .

ومصر حين تفعل ذلك تحطم قيداً من القيود التى تعوق الثقافة عن أن تنتشر وأن تقوى ، وتهيئ جواً صالحاً للمعرفة الحقة ، وتبدد ظلمات الجهل بمشعل العلم والنهج الصحيح .

ب – هبوط مستوى التعليم

وليست المشكلة فى انتشار الأمية فحسب بل إن الأمر يتجاوزها إلى هبوط مستوى التعليم مما يحسه المربون وتنطق به تقاريرهم فى كل عام دراسى ؛ ولعل ذلك يعود إلى بواعث كثيرة متشابكة نرجو أن نوفق إلى رسم خطوطها الرئيسية .

وأول هذه البواعث عدم الانتظام فى الدراسة طوال العام المدرسى

وقد بدا هذا واضحاً فى أعوام ما قبل الثورة المصرية الأخيرة ، ولعل طلاب اليوم لا يزالون تحت تأثير الاضطرابات التى كانت تقع فى المعاهد المصرية بين حين وآخر لأوهى الأسباب ؛ فنرى بعضهم يغادر المعهد ليشهد دور الخيالة أو يتسكع فى الطريق العام ولكن وزارة التربية والتعليم قد تنبهت لذلك أخيراً وفرضت على الطلاب نسبة للحضور إذا لم يحصل عليها الطالب تخلف العام بأجمعه وفى العامين الأخيرين نجحت وزارة التربية فى إقرار النظام فى معاهدها الثانوية وفى الجامعة أيضاً مما يذكر لها بالخير فقد أسدت جميلا لا يجحد إلى الآباء بل إلى مستقبل الأبناء .

على أن الوزارة إذا نجحت فى إقرار النظام العام فإن المربين لم ينجحوا النجاح المنتظر فى إقرار النظام داخل الفصل وقد يعود ذلك إلى العصر .

إن العصر الذى يعيش فيه الطلاب ويتنفسون فى جوه عصر قلق واضطراب ، العصر الذى يعقب الحروب ويسوده الانحلال، إلى حد ما وكذلك ترتفع موجة الغلاء فيضحى رب البيت برما بأبنائه ضيقاً بحياته عاجزاً عن توفير العيش لأسرته والأبناء يفرون من جحيم البيت حيث تحتضنهم الجماعات اليسارية حيناً وأصدقاء السوء حيناً آخر فيصبح الإبن ثائراً أو نافراً يضيق بالبيت والمدرسة إلى العصابة أو الملهى أو المقهى أو ما إليها .

لقد أصبح التلميذ فى هذا العصر جموحاً لا تستطيع فى يسر أن تسلس قياده أو تأخذ بزمامه ولن يجدى فيه علاج إلا إذا غيرنا الجو المدرسى

وجعلناه يتمشى وروح العصر وزمن المراهقة .

ويتصل بذلك سيادة مبدأ تكافؤ الفرص وتجاوب البلاد بأصدائه، وقيام دعاة الاصلاح ببث روح الإقبال على التعليم وتوطيد أركان المعرفة واستجابة الشعب لهذه الدعوة الكريمة وتعرض المدارس لموجات زاخرة من الطلاب .

فهذا الضغط الملح على المدارس والمعاهد جاء فجأة وفى غير تقديم مما أربك الأداة المدرسية وأعجزها عن أن تواجهه أو تقف فى سبيله فلم تجد بداً من أن تزيد عدد التلاميذ فى الفصول حتى اكتظت بهم على سعتها وأصبح الفصل الدراسى فى المعاهد المصرية على اختلاف مراحلها غاصاً بالتلاميذ .

وزحمة الفصل أعدى أعداء المعلم إنها ترهقه وتعنيه وقد تدفعه إلى الاستهتار أو الاستهانة بالعمل إذ يجد نفسه كما يقول رجال القانون أمام استحالة مادية يتعذر معها المضى فى النهوض بواجبه .

فإن استجاب لداعى الوطن والحرص على مستقبل الجيل الجديد لم يحسن عمله ولم يستطع تجويده كما ينبغى إذ كيف يتاح له دراسة نفسية كل تلميذ حتى يعالجه العلاج الملائم فى الدرس والخلق ؟ بل كيف يوزع أسئلته على هذا الحشد الحاشد حتى يفيد من النقاش أكبر عدد ممكن ؟

وكيف يتمكن من إشاعة السكينة والنظام فى فصل هذا عدده حتى يفيد من مادته هؤلاء الطلاب ؟

نقول هذا فى بلد لم تفتح فيه معاهد كافية لتربية أو سياسة الأطفال

المعضلين ممن قست عليهم بيئتهم أو وراثتهم فانبثوا فى كل معهد وكانوا فيه أداة إفساد ومثار فوضى وانقسام .

وحيث تكون الكتلة أو يكون التجمع والتكتل مهما يكن الضابط أو الرابط يغدو سبيل الإضراب والتسلل ميسراً معبداً .

ليس هذا فحسب بل إن هذا الإقبال الشديد يقابله قلة فى المدرس الصالح المثقف مما أحوج الإدارة المشرفة على التعليم إلى أن تجمع المدرسين من هنا ومن هناك فندرت الكفايات وانثالت جموع الضعاف فإذا الضعف باد والانحدار سمة ظاهرة .

المدرس الكفء علة العلل الآن ولن تحل هذه العلة إلا بالإكثار من معاهد المعلمين كما ناديت من قبل واتجهت إليه السياسة التعليمية الآن.

ومن أسباب ضعف التعليم طريقة التدريس التى تعتمد أكثر ما تعتمد على الطرق القديمة التى لا تتعرف رغبات الطفل وميوله بل ظلت على العهد بها ضيقاً وجموداً ، لقد جدت فى التربية الحديثة طرق أفادت من التقدم التربوى والنفسانى والاجتماعى وعرفت للأطفال ميولهم واحترمت استعدادهم وتخلصت من طرق الإملاء والكبت والقسر نذكر منها على على سبيل المثال لا الحصر طرق منتسورى ودالتون والمشروع وتمتاز كلها بالمرونة ومنح الحرية للطفل والإفادة من حبه للعب. استمع إلى ديوى كبير المربين فى العصر الحاضر حيث يلخص لنا هذه الاتجاهات المحدثة فينادى « بأن يكون الطفل محوراً للبداية وهو المركز وهو الغاية من عملية التربية فهى تراعى ميوله الحاضرة وحاجاته النفسية وتهتم بحاجة الطفل إلى الأمن وحاجته إلى المخاطرة فهما نزعتان ظاهرتان فى المجتمع وفى مظاهر

نشاط الإنسان . . . . . . ويرى بعض الباحثين أن المخاطرة ليست سوى نتيجة للشعور بالأمن . فالميل إليها يتجلى إذا توفر هذا الشعور فالطفل الذى يهاجم غيره إنما يفعل ذلك لوثوقه من قوته فالحاجة للأمن إذن هى الحاجة الأساسية والرغبة فى الأمن رغبة لا يمكن إغفالها والطفل لا يتقدم بسهولة فى ميدان من الميادين إلا إذا اطمأن إليه وفقدان الأمن ينتج عنه مشاكل لا حصرلها .

وأخرى فالطفل بحاجة إلى الحب والعطف وإلى اعتراف غيره به وهو بحاجة إلى الحرية والضبط فى آن واحد وبحاجة إلى الشعور بالنجاح ، وحاجته إلى الشعور بالنجاح مرتبطة كل الارتباط بحاجته إلى الأمن ، فالطفل يتطلع إلى النجاح ويميل إليه ، والنجاح هو مفتاح الثقة بالنفس ومتى وثق الطفل بنفسه شعر بالأمن فيتقدم ويرتقى سلوكه ويزداد نجاحه إذا شجعه من حوله وأظهروا الاغتباط بنجاحه وقد قيل « لا يُنجح فى الحياة مثل النجاح فى الحياة »(١) .

لقد راح العصر الذى كان المعلم فيه كل شىء والمتعلم لا شىء فالمدرسة بوضعها الجديد ينبغى أن تقدم للمجتمع خدمات جليلة لأنها ستخرج أعضاء نافعين يدركون ويفهمون ويستطيعون التغلب على المشكلات أو يفهمون الحياة على وضعها الصحيح .

ولننتقل إلى مشكلة أخرى هى مشكلة المنهج وأول ما يسترعى نظر المؤرخ قلقه وتغيره بين عام وآخر مع أن المنهج ينبغى أن يوضع تحت التجربة قبل أن يعمم فإذا استبان للمربين صوابه ونجاحه مضوا فى

---

(١) التربية وطرق التدريس للدكتور عبد العزيز عبد المجيد وزميله ص ٢٩١ .

إنفاذه وإن رأوا قلقاً فى ناحية ما عرضوا لها بالتحوير والتبديل ثم فرضوه على المدراس والمعاهد .

ولو أن وزارة التربية تريثت قبل أن تقدم على إذاعة المنهج فنشرت مشروعه بين رجال التربية وفى معاهد التعليم حيث يتناولونه بالنقد والتمحيص ثم يوضع موضع التجربة فى إحدى المدارس النموذجية بعد أن تحتضنه معاهد التعليم وتعرض له بالدراسة الشاملة الدقيقة فى سند من التجربة وعلى هدى آراء كبار المربين المحدثين فى غير إغفال للوسط الذى نعيش فيه والزمن الذى نحياه .

لو فعلت ذلك لأحسنت صنعاً ، ولما كان هذا القلق ولما وقعنا فى مشكلات ضخمة من جراء هذا التغيير الدائم المستمر .

وبهذه المناسبة يجدر بوزارة التربية آن تصدر صحيفة تربوية تضمنها أحدث آراء المربين فى العالم وما تنتويه من إصلاح لخططها وتعديل فى برامجها تحت بصر المعلمين والمربين .

إنها لو فعلت لجددت معارف الأساتذة ودفعتهم إلى الإطلاع والاستزاده من معلوماتهم وكانت لهم حافزاً على الدرس والتحصيل والتجربة وحببت إليهم هذه المهنة الكريمة الشاقة فآثروها على غيرها لأن فى التجديد لذة وفى التقدم حياة .

وقد أحست اللجنة الأمريكية بهذا النقص البادى إذ لم تجد صحيفة تربوية رسمية تصدر عن وزارات المعارف إلا فى العراق وأشارت « بالعمل على إيجاد هذه المطبوعات وتهيئة الدراسة الفنية للمعلمين المشتغلين فعلا وإنشاء دراسات صيفية ولمدة سنة كاملة للمعلمين ولاعداد النظار الأكفاء

الذين يستطيعون مساعدة معلميهم وتحسين حالهم وما ذلك إلا للاحتفاظ بطاقة المدرس الفنية حتى لا يباعد بينه وبين الاتجاهات الحديثة فيفقد قوته المعنوية »[١] .

على أن أكبر عيب يمكن أن يوجه إلى المناهج أنها نظرية فيتجه أغلبها إلى الناحية الأكاديمية ويتضح فى المناهج جميعها سواء فى المرحلة الأولى أو فى المراحل التالية وقد أشرنا من قبل إلى منهج المرحلة الأولى فلنجاوزه إلى التعليم الثانوى .

إننا نشاهد فى البلاد العربية إقبالا منقطع النظير على المدرسة الثانوية يقابله فتور أو قطيعة للمدارس الفنية الزراعية والتجارية والصناعية ولعل هذا الإقبال على النوع الأول مرده إلى المرتبات الحسنة التى يحصلون عليها بعد التعليم الجامعى .

وقد يعود إلى أننا فى الشرق نزدرى الصناعة والزراعة فكثير منا يعبد المظهر ويترامى فى أحضان أبهة الوظيفة أو فخامة المنصب الرسمى .

على أنى أرى وتوافقنى اللجنة الأمريكية وغيرها من المشتغلين بالتعليم فى الشرق — أن علة العلل إنما هى فى قصور المنهج عن أن يخرج صناعاً ماهرين وزراعاً مدربين — إن التعليم المتوسط أو الثانوى يمكن أن يؤدى لمصر فى نهضتها الحاضرة خدمات جليلة لو عنى عناية حقة بتخريج أمثال هؤلاء الفنيين الذين يمكنهم الاضطلاع بأعباء التدريب فى مدارس المرحلة الأولى وإدارة شئون الجمعيات الزراعية أو الإقطاعات التى تقطعها لهم الحكومة من أرضها والإفادة منهم فى المشروعات الكبرى

---

(١) التربية فى الشرق الأوسط العربى ص ٧٢٦ .

التى تقوم عليها مصر من إصلاح الأراضى البور واستثمار الصحارى والإكثار من المصانع واستبحار شئون العمران وما يتبعه من تجديد وإنشاء .

علينا إذن أن نعيد النظر فى تعليمنا المتوسط وأن نغرى أبناءنا بالاقبال على التعليم الفنى بمختلف ألوان الإغراء وأن نضع سياسة مرسومة للاكثار من هذا النوع من التعليم وأن نشرك فى وضع برامجه كبار رجال المال والاقتصاد والصناعة والزراعة وأن نغلق أبواب الوظائف الكتابية أمام متخرجى الزراعة والصناعة وأن نشجعهم ما أمكن على امتهان العمل الحر وفتح الشركات والمصانع ومنحهم قروضاً من البنوك الصناعية والزراعية بعد الوثوق من جدية طلباتهم .

وأن نمد هذه المدارس بالفنيين والخبراء حتى يتخرج طلابها على أحدث الوسائل وأقوم الأساليب ويستطيعوا الصمود أمام المنافسات الحادة فى الأسواق المحلية والخارجية .

وعلينا أن نفتح السبيل أمام هؤلاء المتخرجين ليتموا دراساتهم إن أرادوا ومكنت لهم مواهبهم القبول فى الكليات الفنية العملية .

ولست أدرى كيف يفضل متخرجو المدارس النظرية الثانوية على متخرجى المدارس الفنية فى القبول فى الكليات العملية كالهندسة والتجارة والزراعة ؟

بل إنى أرى أن يزاول طلاب المدارس الثانوية ألواناً من النشاط وأنواعاً من الهوايات فيها تدريب عملى على مواجهة بعض أعباء الحياة فليس هناك من بأس فى تدريبهم على الآلة الكاتبة والحاسبة والكهرباء العملية والميكانيكية وقيادة السيارات ووسائل الانقاذ والتمريض وإطفاء

الحريق وما إليها والتمرين على الزراعة وغرس الأشجار وتعهد النبات وتربية الدواجن مما لا يستغنى عن الإلمام به مواطن فى أية دولة فى الحرب والسلم على السواء .

ومزاولة هذه الهوايات والاشتغال بهذه الأعمال فيه تنويع للمنهج وفى التنويع حياة وتشويق وفيه دفع لهؤلاء الطلاب على أن يجدوا لذة فى قضاء أطول مدة ممكنة فى معاهدهم مما يعصمهم من الزلل ويبعدهم عن مواطن الشبه .

وفيه توسيع لآفاقهم وتزويد لمواهبهم بما يعينهم على خوض الحياة التى نحياها ، والتى تتميز بالتقلب والتحول والاضطراب .

والمنهج المعد لمدارسنا ينبغى ألا نقصره على البيئة المحلية بل أن نرقى به إلى العالم العربى فيقف تلاميذنا فى مصر على أحوال جيرانهم وإخوانهم ويعرفون الكثير عن أقرانهم وما يعترضهم من مشكلات وما يصبون إليه من آمال .

وأن يشتمل المنهج على قدر مشترك بين البلاد العربية حتى نوجد نوعاً من التآلف الثقافى والتقارب الفكرى ووحدة الهدف ، فالاتحاد العربى الصحيح لن يتحقق ويصبح واقعاً وماثلا إلا عن طريق التعليم والتربية ، ولعل اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ترسم خطوط هذا القدر المشترك ثم تحمل الدول الأعضاء على التزامه والأخذ به .

أما اللغة الأجنبية فى المنهج المقرر للتعليم الثانوى أو المرحلة المتوسطة فينبغى أن نعرض لها بالتفصيل فى هذا الموضع من البحث .

لا شك أن مصر ملتقى قارات وقبلة أنظار والرأى العام يتقدم فيها بخطا سريعة ليضطلع بحظه فى البناء العالمى ويستعيد مجده الغابر وهو بهذا الوضع مدفوع إلى أن يحذق اللسان العالمى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية مثلا .

وأصبحت مصر اليوم عضواً عاملا فى المنظمات العالمية له مطالبه واتجاهاته والتزاماته ولن يظفر بمكانه المرموق فى المحيط العالمى إلا إذا شاركه شئونه ونهض بنصيبه فيه على أحسن وجه وأدقه .

وكيف يتيسر له ذلك إذا أقام فى شبه عزلة، وغلا فى القومية غلو المتعصب الذى يقصر فكره على محيطه ؟

ليس من الصالح إذن التنكب عن حذق لغة أجنبية عالمية وليس من الصالح أيضاً فرض لغة بعينها بل أن نتيح للطالب فرصة الاختيار .

نعم إن فرض لغة بعينها فيه نوع من الظن المريب بتحكم دولة معينة وفيه تحد للشعور الوطنى القومى بل فيه ما يشبه الاحتلال الثقافى .

ثم أن كل دولة لها مميزات فى ثقافتها وحضارتها فلم نقتصر على ناحية ونترك محاسن النواحى الأخرى ؟

إننا بين أمرين إما أن نجعل بعض المدارس تدرس لغة واحدة كالإنجليزية وأخرى تدرس لغة كالفرنسية ، وإما أن نجعل المدرسة الواحدة هى التى تخير الطالب لدراسة اللغة التى يرتاح إليها .

ثم أن توزع الطالب بين لغتين فيه إرهاق له واضعاف لكلتيهما .

والاقتصار على لغة أجنبية يوجد نوعاً من التنافس بين الطلاب والأساتذة ودفعاً لكل إلى التجويد والتحصيل والافتنان .

وعلى القائمين بأمر اللغات الأجنبية أن يولوها بعض عنايتهم ؛ فالضعف فيها معترف به من كل الهيئات والشركات ومرد ذلك إلى عدم كفاية المدرسين من ناحية وانعدام النشاط الخارجى من ناحية أخرى ، وكذلك عدم تبادل الأساتذة والطلاب بيننا وبين العالم الغربى وبخاصة فى الإجازات الصيفية وقلة التراسل بين طلابنا وطلابهم وعدم تزويد المكتبات بالمجلات والكتب التى تناسب مداركهم ومدى تحصيلهم وعدم « التفاتنا إلى السينما الثقافية كوسيلة تقرب إلينا لهجاتهم وطرق نطقهم » .

وعلينا أن نشجع المبرزين فى اللغات الأجنبية بالمكافآت أو منحهم المجانية أو إرسالهم فى بعوث إلى الخارج .

وأخيراً فقد انحرف بنا المنهج عن أن ينمى موهبه أو يخلق مواطناً يوائم بين نفسه وبين الحياة التى يعيش فيها فآل إلى أن يصبح وسيلة لغاية هى اجتياز الامتحان .

لقد انقلبت الأوضاع الآن وأصبحت الوسيلة غاية والغاية وسيلة ؛ تلمس ذلك فى استهانة الطلاب بالتفرغ للعلم والتحصيل أغلب العام الدراسى حتى إذا اقترب شبح الامتحان انصرفوا إليه بكليتهم أياماً مستعينين بالمسكنات أو المنبهات على حفظ المذكرات أو يهرع الطالب منهم فزعاً إلى الدروس الخاصة التى يشوبها كثير من الريبة وفيها إيذاء للخلق وإفساد للضمائر وتحريض على العبث .

ولو أن رجال التعليم طبقوا نظام « الفترات » تطبيقاً دقيقاً عاماً لقضينا على روح الاستهانة والاستخفاف ورددنا إلى المعهد كرامته وقدسيته .

ولو جعلنا نجاح التلميذ فى آخر العام راجعاً – لا إلى تحصيله – بل إلى ذكائه وشخصيته ونشاطه ومثابرته لكان هذا هو المقياس الصحيح .

ولو اقتصرنا فى الامتحانات العامة على امتحان وحيد فى نهاية المرحلة المتوسطة لقضينا على شر جسيم وأضرار محققة وخففنا بعض الأعباء عن ميزانية التعليم وتحللنا من أخطر أمراضنا بإيثار المتعلمين الوظائف الحكومية .

ولو جعلنا نجاح الطالب أو رسوبه بيد هيئة التدريس مجتمعة وكان حكمها الأول والأخير لرددنا إلى المدرسين ثقتهم بانفسهم وإلى التلاميذ إيمانهم بمعهدهم .

إن أقل ما توصف به الامتحانات التى تعقد فى مصر وفى غيرها أنها تخلق جواً من الرهبة لا مسوغ له وتؤدى إلى الارتياب والشك وعدم الثقة ! فناظر المدرسة يحيط الامتحان بأنواع من السرية والمدرس يحتاط ويمعن فى الاحتياط حتى لايتسرب الامتحان إلى الطلاب والطلاب يحدسون بما عساه أن يكون فى أوراق الامتحان ووزارة التربية من وراء ذلك كله ترقب بعين يقظى وتحاسب المدرسة حساباً عسيراً عند تفريطها فى نتائج الامتحان .

الرأى إذن فيما قررته من قبل من تقليل الامتحانات والتخفيف من قيودها وجعل رأى هيئة التدريس الرأى الأول والأخير .

ولقد رغبت وزارات التربية عن المدارس الداخلية مع مالها من أهمية قصوى فى بعض الحالات؛ فالأطفال المدللون إذا غير وسطهم وعودوا

الاستقلال والخشونة والنظام والطاعة فى المدرسة الداخلية تخلوا عن كثير من طباعهم المرذولة وكانوا نعم المواطنين .

والأطفال الذين قست عليهم الحياة فتعرضوا لخلخلة فى بناء أسرهم خير لهم أن يكونوا فى رعاية مربين يولونهم عطفهم ويسبغون عليهم كريم طباعهم ويبعدون بهم عن جو النزاع العائلى الحاد والتعرض لسوء خلق الخدم والالتجاء إلى العصابات الشريرة والجماعات الخطرة .

والأبناء الشرقيون الذين يؤثرون التعلم فى مصر لسبب أو لآخر يمكنهم أن يجدوا فى هذه المدارس رعاية وتسديداً ويوفروا عليهم عناء الإقامة فى الفنادق أو فى أسر قد تكون منحلة أو مستهترة أو تجهل رعاية الأطفال .

وإذن فمن الأمور التى يجب أن توضع موضع البحث والرعاية إعادة المدارس الداخلية حتى لا يشرد أبناء يعز على الوطن تشريدهم أو نضعهم فى ظروف عصيبة تؤدى إلى التحلل والانتقاض على الوطن فضلا عن العناية بهم صحياً من ناحية الغذاء الكامل وإتاحة المسكن اللائق وتمرسهم بالألعاب الرياضية وكذلك رعايتهم ثقافياً بوضع منهاج للقراءة الحرة واستذكار الدروس خارج الحجرات والفصول .

إذا فعلنا ذلك رفعنا المستوى التعليمى ومن ثم خطونا إلى الأمام خطوة موفقة فى تعزيز النشاط الثقافى والتمهيد لحياة ثقافية خصبة فى عهدنا الجديد .

٣

ضعف التعليم الجامعى

دلت المسابقات التى تجرى لاختبار الصالح من خريجى الجامعات، والامتحانات التى يعقدها ديوان الموظفين على أن التعليم الجامعى لم يأت بالثمرة المرجوة منه ولم يحقق الأمل الذى انعقد عليه يوم أن فكرت مصر فى التوسع الجامعى وإشاعة الدراسة العالية الجامعية فى مصر، وشكا رجال الأعمال من ضعف مستوى الخريجين سواء فى اللغات الأجنبية أو النضج العقلى أو الناحية الفنية.

ومعنى هذا أن الثقافة الجامعية قاصرة عن أن تفى بالغرض المقصود منها وأن الحياة الجامعية لم تتأصل فى نفوس الطلاب ولم تبن على أساس سليم؛ فما الغرض من التعليم الجامعى أولا؟

الغرض الأول منه تخريج فنيين ممتازين يمكن الاطمئنان إليهم فى إدارة دفة الأمور فى البلاد، والبت فيما يوكل إليهم من أعمال ويمكنهم إذا تابعوا دراستهم أن يضيفوا جديداً إلى المعرفة الإنسانية.

ومعنى هذا أن على الجامعة أن تكوّن الشخصية القادرة على التكيف وتصريف الأمور.

وعليها أن تأخذ بيد طلابها وتهديهم إلى وسائل الاطلاع وأن تغرس فيهم ما علمناه قديماً من «أن حياة العلم مدارسته» وأن التجارب لها أثر كبير فى زيادة المعرفة الإنسانية.

وأن تخلق لهم الجو الملائم للبحث والاطلاع ومتابعة الدرس والانتفاع إلى أقصى حد بجهود وآراء المفكرين فى العصر الحاضر وما انتهى إليه الفكر العالمى فى مراحله الأخيرة فلا تضيق نظرتهم ولا يتخلفون عن الإحاطة بالكشوف الحديثة والمبتكرات الجديدة .

حقاً إن السنوات الأربع أو الخمس لا تمكن الطالب من الإحاطة التامة بفنه ولكنها تنير له الطريق وتكشف له معالم الدراسة والتزود من البحوث القديمة والطريفة .

وعلى هذا ينبغى أن تعنى الجامعة العناية الشاملة بمكتباتها وأنديتها الثقافية وتوفر للطالب الوقت الذى يمكنه من التفرغ للدراسة بما تعقد من مناظرات وما يلقى فيها من محاضرات لكبار القادة والأعلام والأساتذة الأجانب حتى تتيح الفرصة لعلمائنا الوقوف على البحوث الجديدة وتقدم لطلابنا أساتذة الفن العالميين .

وهى لن توفق فى ذلك ولن تبلغ ما تريد إلا إذا اختارت من بين طلاب التعليم الثانوى من يصلح للتعليم الجامعى فى الفن الذى يريد التخصص فيه وإلا إذا أبعدت عن محيطها الدخيل على الروح الجامعية وفرغ أساتذتها للدراسة والبحث ونذروا أنفسهم للحياة العلمية الخالصة فلا تحاسد ولا تباغض ولا جرى وراء المناصب والألقاب واضعين نصب أعينهم التقدم بالإنتاج العلمى والفنى لإعلاء صرح النهضة الفكرية فى مصر الحديثة .

لقد جلست أخيراً إلى كثير من الأساتذة الجامعيين الذين يوجهون الفكر ، ويقومون على الثقافة اليوم ؛ فإذا حالهم من القلق تبلغ مبلغاً يدعو إلى التفكير الطويل ؛ فهم قلقون على مستقبل الفكر ، ضائقون

بكثرة العمل وزيادة عدد المحاضرات مما يقربهم إلى الآلية البحتة وعدم التفرغ للتجديد والكشف وتعمق البحث والدراسة .

حقًّا إن جامعاتنا لما تزل فى أول عهدها ولكنا نرجو أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تقيم أسسها على دعائم قوية متينة .

إنه ينبغى أن نعنى بالكيف لا بالكم فنخرج طلاباً جديرين بشرف الجامعية وأن نعالج الضغط على الجامعات بكثير من الصبر والجهد فإذا اخترنا الطلاب المتقدمين إليها اختياراً دقيقاً موفقاً فى ضوء إمكانيات الجامعة وعدم المساس بالمستوى العلمى والثقافى فيها واستقدمنا الأساتذة الجامعيين الأجانب ، وأشعنا جواً من الاستقرار فى المحيط الجامعى بإبعاد المدرسين الذين لم تشرب روحهم بالأسلوب الجامعى والروح الجامعية ، ووجهنا أكثر طلابنا فى المدارس الثانوية إلى الناحية العملية (هندسة — طب — زراعة — تجارة — علوم . . .إلخ) وأكثرنا من المدارس الفنية فى المرحلة الثانوية فإنه مما يدهش ويثير العجب أن نرى وزارة التربية والتعليم تقدم لنا هذا الإحصاء الأخير الذى يتكشف عن الحقيقة المرة من ارتفاع نسبة المدرسة الثانوية الأكاديمية وانخفاض نسبة المدارس الثانوية الفنية وننقله بنصه إلى القارئ .

نوع التعليم الثانوى	نسبة البنين	نسبة البنات	الجملة
الثانوى العلمى	٧١,٤	١١,٦	٨٣,٠
الثانوى الصناعى	٠٨,٠	٠٠,٠	٠٨,٠
الثانوى الزراعى	٠٢,٠	٠٠,٠	٠٢,٠
الثانوى التجارى	٠٣,٧	٠٠,٥	٠٤,٢
الثانوى النسوى	٠٠,٠	٠٢,٨	٠٢,٨

وكان الأحجى أن يكون الأمر على العكس وبخاصة فى عهد التصنيع والتقدم الزراعى على أن تقصر دخول كليات الهندسة خريجى المدرسة الثانوية الصناعية، والتجارة على طلاب المدرسة التجارية وهكذا .

لو فعلنا ذلك لخففنا عن الكليات النظرية بعض الشيء وعالجنا أزمة كثرة المتخرجين فيها وتفرغ الأساتذة إلى الإنتاج العلمى الحق وعملوا على العناية بالناحية الثقافية وإشاعها بين الطلاب والنهوض بالدارسين الجامعيين حتى يشرف بهم الوطن ويرقى ، وتتقدم النهضة العلمية على أيديهم .

ولقد تعرضت الجامعات المصرية فى الفترة الأخيرة لمحن وأصابتها هزات عنيفة واضطرب المحيط الجامعى نتيجة أمور ؛ منها إفساد الحزبية الصارخة فى البلاد الشباب الجامعى والأساتذة الجامعيين قبل الثورة بما أضعف المستوى الجامعى وقصر العام الجامعى حتى لم يزد فى بعض السنوات على شهرين وتفرق الأساتذة إلى شيع وأحزاب والتجاء كل فئة إلى بعض ذوى النفوذ والمناصب ليعينوها حتى أضحت الجامعة ميداناً للتطاحن والتنابذ ، ولا شيء غير .

وكان من نتائج تلك الأحداث التى مرت بالجامعة والهزات التى تعرضت لها وإقدام الأساتذة على إرضاء الطلاب ليكونوا لهم عوناً وظهيراً ، أن سادت الجامعة المذكرات والملخصات ، واختفت المراجع العلمية والبحوث الذاتية للطلاب وإذا الجامعة تفسد بعض الشيء وتصبح مدرسة ثانوية أخرى

وإذا هذه المذكرات تطبع وتباع بأبهظ الأثمان وإذا هى محنة أخرى من محن الجامعة .

إن مستوى الطالب فى الجامعة ينبغى أن يقاس بما قرأ من مصادر واطلع على مراجع فى علمه وفنه وكذلك بثقافته العامة ومبلغ مهارته ، وحكمه الصادق المتزن على الأمور .

وينبغى لمجلس الجامعات أن يحرص الحرص كله على أساتذة الجامعة فلا يفرط فيهم بالنقل أو الانتداب وإن يكن ذلك إلى الأقطار الشقيقة أو التمثيل الثقافى ، إذ تستطيع الوزارة أن تدبر أمر المطلوب منها من بين النابهين من أساتذتها كما فعلت مصر فى أول عهدها بالتعليم الجامعى ، حتى اقتدار الأساتذة المساعدين واشتداد ساعدهم وإمكانهم أن يحلوا محل رؤسائهم وأن تعمد الجامعة إلى التوسع فى تعيين الأساتذة غير المتفرغين والاستعانة برجال الفكر من غير الجامعة ليقوموا بالمحاضرة فى الفن الذى حذقوه من طول تجاربهم وقوة تمرسهم .

وأن تعطى المجلات الجامعية مزيداً من الاهتمام حتى تكون صورة رائعة للدراسة والنهج والبحث.

وأن تضع تحت أنظار الطلاب الكتب الثقافية ذات المعرفة الواسعة ، وأن تمدهم بكل جديد فى العلم والفن على نطاق واسع .

وقد تكون وزارة التربية والتعليم عاجزة عن أن تفى بحاجة الجامعات بما يعينها على النهوض بالأمانة الملقاة على عاتقها ؛ فمن الخير أن ترصد وزارة الأوقاف جانباً من ريع أوقافها الخيرية؛ لإعانة الجامعة فى تأدية رسالتها الحقة ، ومن الخير كذلك أن يقبل رجال المال والأعمال والموسرون

على التبرع للجامعات بجزء من ثرواتهم ؛ وبهذا العمل الجليل يقدمون أعظم خدمة لبلادهم ووطنهم ويدفعون ضريبة النعمة التى أسبغها الله عليهم فيرفعون شأن وطنهم ويرضون ربهم ليجزوا الجزاء الأوفى .

د – قيام التعليم الأجنبى

لعل الدافع الأصيل لإقامة هذه المدارس هو نشر الثقافات الأجنبية والدعاوة لها من أنها هى الثقافة وما عداها فظل لها أو قبس من نورها أو عالة عليها ؛ وهو باعث يصاحب الغزو العسكرى دائماً !

ويتنازع سلطان الثقافة الأجنبية فى مصر أمريكا وإنجلترا وفرنسا التى غزت كل مراحل التعليم بأنواعها الابتدائية والثانوية والعالية ومن الأخيرة الجامعة الأمريكية وإن كان اللون الغالب مقصوراً على المرحلتين الأولى والمتوسطة .

وقد تكون وجهة النظر فى ذلك أن الحكومات الأجنبية ترى من المصلحة لثقافتها ونفوذها أن تستقدم الطلاب إلى بلادها ليتعلموا التعليم العالى حتى يشربوا بعاداتها وتقاليدها وثقافاتها بعد أن تكون قد نفذت إلى أغوار نفوسهم فى المرحلة الأولى .

وقد درجت المدارس الأجنبية على سنن التدريس بلغاتها فى إغفال للقومية الشرقية والثقافة العربية ؛ فالمعاهد الفرنسية تفرض المنهاج الفرنسى الكامل على الطلاب فإذا هم يجهلون كل الجهل وطنهم وثقافتهم وماضيهم بقابل ذلك إلمام تام بالأمة الفرنسية عاداتها ووطنها وكتابها وعظمائها .

وأظن أن هذا تحد للشعور القومى كان الأحرى بالقائمين على الشئون الثقافية أن يحدوا منه وأن يذكروا هذه المعاهدبالوفاء للبلاد التى أفسحت لها صدرها وهيأت لها مكاناً بينها وأعانتها على الإقامة ورعتها رعاية شاملة .

كان الأحرى بهم أن يفعلوا ذلك، ولكنهم تراخوا فيه حتى عهد قريب ولعل السبب راجع إلى ضعف الرأى العام من ناحية وإيمان بعض المفتونين بالثقافة الغربية من ناحية والضغط الأجنبى من ناحية ثالثة .

وإن كنت قد رأيت أخيراً أننا بدأنا نتنبه إلى هذه الخطورة ففرضنا نوعاً من الرقابة على هذه المدارس وألزمناها بتدريس اللغة القومية والدين والتاريخ والجغرافيا للطلاب المصريين المنتظمين فى الدراسات فيها .

ومع هذا فلم تتقدم العناية بالناحية القومية تقدماً يذكر لعدم إيمان مديرى هذه المدارس بالشعور الوطنى أو تجاهلهم له فلا يزالون سادرين فى تراخيهم وإن استجابوا فاستجابة شكلية وقد قمت بالرقابة على مدرسة أجنبية فى مصر فى أثناء امتحاناتها فوجدت من ذلك عجباً فالمدرسون الذين يقومون بتدريس اللغة العربية من ذوى اللكنة الأعجمية أو ممن لا يعبئون بتقدم هؤلاء الطلاب فى اللغة العربية حتى أرادوهم على الاستهانة بلغتهم إذ لم تقدم إليهم كلغة حية لها جمالها وطواعيتها ووضوحها بل كلغة تتلفف برداء الموتى وتفوح منها رائحة القبور .

إن هؤلاء القوم لم يقتصروا على تقديم لغاتهم وثقافاتهم بل عملوا على خلخلة الثقافة العربية ووصمها بالتأخر والانحلال ليعافها أبناؤها ويكونوا حرباً عليها .

وإذن فما موقفنا من هذه المدارس والمعاهد التى لا ترعى حرمة للوطن

ولا رعاية للشرق ولا أمانة للعلم ولا إخلاصاً للمعرفة أيا كان منبعها ومصدرها ؟

إن مصيرها الإغلاق والإقفار فمقاطعتها من الرأى العام قريبة مواتية لا شك فيها .

إنى أرى موجة من الضيق بأكثر هذه المعاهد التى تحتلنا احتلالا أخطر من الجيوش الغازية لأنها تؤثر على أجيال وتوجه أبناء سيكونون رجال المستقبل القريب ، وويل للوطن الذى يسعى للتحرر من أن يقوده أمثال هؤلاء الأبناء .

إن الخيط الذى يربطنا بأمثال هذه المعاهد خيط واحد وعما قريب سينقطع إذا ظلت على خطتها ؛ هذا الخيط هو تعطش هذا الوطن إلى التعلم وضيق الأماكن فى المدارس الحكومية أو الأهلية القومية فإذا سارت الدولة فى الطريق المرسوم لها بالقضاء على أمية الصغار فى القريب العاجل تحررت من هذا النير ، واستطاعت أن تقطع هذا الخيط وأن تغلق هذا الباب إلا إذا استجابت هذه المعاهد إلى قوة الوعى ، وغيرت من خطتها نحو الثقافة العربية .

وقد تنبهت اللجنة الموفدة من مجلس التعليم الأمريكى إلى هذه الحقيقة فنصحت لهذه المعاهد أن تشارك فى رفع المستوى الثقافى للشرق ، فى غير ما تحيف للثقافة العربية ، وفى غير تحد للشعور القومى وأن تعمل على تكميل ما تغفله المدارس العامة أو التعليم العام وأن تكون همزة الوصل بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وأن تكون معاهد تجريب لأساليب التربية

---

(١) « التربية فى الشرق الأوسط العربى » ترجمة الدكتور أمير بقطر ص ٧٣٢ .

الحديثة التى تتفق وطابع الشرق، وأن تقوم بدراسة مشكلات الشرق وتنظم لها البرامج، وتسهم فى حلها ما أمكنها إلى ذلك سبيلا، والجامعة الأمريكية فى مصر خير مثال لهذا التعاون وذلك التقريب؛ باتجاهها السديد وعملها المتصل للمشاركة فى تكوين جيل جديد، فهلا حذت حذوها هذه المعاهد السادرة فى تعصبها المتحدية لشعورنا المتنكرة لماضينا ! !

وهناك بعض المدارس الأجنبية التى أدت لنا مع تعصبها خدمات لا تنكر إذ تخرج فيها من تغلبت شخصيتهم القومية على وسائل إغرائها ففاضوا على البلاد تقدماً ودفعوا بعجلتها إلى الأمام .

وقد حافظت هذه المعاهد على مثلها العليا فى التربية والتعليم فاختارت عناصرها من أكرم العناصر .

وحافظت كذلك على مستواها العلمى من أن يهبط أو يتحدر وظاهرتها دولها بشتى أنواع المساعدات المالية والفنية .

ومما يذكر لهذه المعاهد توجيه عنايتها إلى الناحية الخلقية والاهتمام بها كل الاهتمام فأكثر متخرجيها مثال للنشاط والمثابرة والحرص على الوقت والانتفاع به إلى أبعد الحدود .

ولعل المعاهد الأجنبية تحسن صنعاً لو قصرت نشاطها فى المستقبل القريب عندما تخف وطأة التزاحم على أبوابها على أن تكون مراكز للثقافات الأجنبية فى الشرق العربى فتمكن الطلاب من التضلع فى اللغة الأجنبية باستقدام كبار المحاضرين والأساتذة لينقلوا إلينا آخر ما وصل إليه العلم الحديث والفن الرفيع وتهيئ للطلاب المراجع والمصادر النفيسة التى لا غنى لهم عنها .

بهذا الوضع يمكن أن تكون هذه المعاهد منافذ للثقافات الأجنبية فى الشرق العربى ، وأن تكون لقاحاً للثقافة العربية الحديثة حتى تسير جنباً إلى جنب والثقافات العالمية الأخرى فى ركب الحضارة الإنسانية .

هـ – اتجاه التعليم الدينى

فى فصل سابق مسسنا هذه المشكلة مساً رفيقاً وها نحن أولاء نعود بشىء من التفصيل إلى اتجاه هذا النوع من التعليم بعد أن ظهر خطره وكان قوة فعالة فى توجيه الثقافة فى مصر فترة طويلة من الزمن .

فمصر حاضنة التراث العربى وبخاصة بعد أن تخلت الحكومة العثمانية عن دينية الدولة، ومصر مهبط الحضارات وملتقى الثقافات كل هذا جعلها تغالى فى العناية بهذا التعليم ، وأصبح رجال الدين فيها ذوى شأن بكثرة عددهم وانتشارهم فى أعماق القرى واختلاطهم بطبقات الشعب وبخاصة الطبقة الساذجة .

ورمز التعليم الدينى فى مصر هو الجامعة الأزهرية التى تشمل كليات للغة العربية وأصول الدين والشريعة ثم المعاهد الدينية فى الحواضر وبعض مراكز الجمهورية .

والجامعة الأزهرية لا ترضى عن التعليم العام فى الدولة فاتجهت إلى إنشاء مرحلتين خاصتين مرحلة ابتدائية وأخرى ثانوية .

والأزهر فى هذا الاتجاه بدع من بين جامعات العالم الأخرى ، فالمفروض فى الجامعة أن تشتمل على كليات فحسب لا تتجاوزها إلى

مراحل أخرى من التعليم تتكفل بها الدولة وترسم مناهجها .

وباتجاهها هذا تزيد من انقسام الأمة وتشعب ثقافاتها وعدم اجتماعها على كلمة واحدة أو رأى واحد .

فالتنظيم الجديد للجامعة الأزهرية ينبغى أن ترفع منه المرحلتان الأولى والثانية من التعليم لخير مصر وخير الأزهر .

فالمرحلة الأولى مرحلة واحدة تنهض بها الدولة وتقوم عليها وتنشر فيها القدر الثقافى المشترك بين المواطنين جميعاً وقد عرضنا فى حديثنا عن مناهج المرحلة الأولى أنه من الممكن أن يتوافر بعض الطلاب من الأوساط الدينية المحافظة فى أثناء الأجازات الصيفية على العناية بالثقافة الدينية وهؤلاء يكونون نواة الجامعة الأزهرية .

والجامعة الأزهرية تغلو فى الدراسة الدينية ، وتغفل أو تكاد ما عداها من الدراسة المحدثة وبهذا النهج لا يشارك متخرجوها فى وضع حلول للمشكلات الاجتماعية التى تعوق تقدم الأمة وإن كنا نرى كليات اللاهوت فى العالم تخرج رجال الدين من الطراز المثقف ثقافة عميقة خصبة غير متخلفة بل سباقه إلى الأمام فإذا عالجوا المشكلات عالجوها فى صدق وفهم ومعرفة بطبائع الأمور فكان حكمهم أكثر سداداً وأعظم توفيقاً وأقرب إلى الإصلاح والتقدم .

ووعاظ الأزهر كان يمكنهم أن يكونوا أداة فعالة فى إصلاح حال الشعب والمشاركة فى إزاحة أركام الجهل والفقر والمرض وأن يعيشوا بين الفلاح والصانع ليكونوا لهما المثل الأعلى والرفيق الكريم والمرشد الناصح .

وكان يمكنهم أن يقفوا صفاً واحداً لتأييد المشروعات الإصلاحية

الكبرى التى أقدمت وتقدم عليها البلاد .

بل كان يمكنهم أن يكونوا هذا المصلح لو لم يحصرهم هذا التعليم حلقة دينية ضيقة .

وكان على الأزهر كجامعة إسلامية كبرى إنشاء دراسات لغوية قوية تتخذ من تقدم فقه اللغة الحديث أساساً لبحوثها وجهودها ولكن هذه الجامعة مع الأسف اقتصرت على التمرس بالدراسة اللغوية القديمة وليتها استقتها من ينابيعها الأولى بل حاكت مسلك المدارس العليا الأخرى الإيمان بالمذكرات والمختصرات والاعتماد على القشور دون اللباب فأضحت كلية اللغة العربية مثلا وظيفتها الأولى والأخيرة تخريج مدرسين لمراحل التعليم .

وكان عليها أن تكون مناراً للثقافة الإسلامية فى العالم فتعمل على نشر المصادر الإسلامية والبحث عن كنوزها المطمورة فى مكتبات العالم وتعريف الأمم بمبادئ الدين الإسلامى وتعاليمه، خالصة من شوائب التزيد مستقاة من سماحته مستمدة من روحه المساير لكل عصر وجيل وزمان وقبيل وبخاصة الأمم المسلمة الناطقة بغير العربية كباكستان وأندونيسيا إلخ.

وكانت تستطيع الجامعة الأزهرية أن تكون سبيلا من سبل التقريب بين المذاهب الإسلامية والتوحيد بين مناهجها والدعوة إلى نبذ الخلاف بين طوائفها وفرقها حفاظاً على وحدة العالم الإسلامى وتماسكه وسلامته من أن ينال منه المتربصون به ، العاملون على تفرقته وتنازعه .

وكانت تستطيع هذه الجامعة أن تكون مركز النشاط للثقافة الإسلامية بإلقاء المحاضرات من كبار الأساتذة المهتمين بالدراسات الإسلامية فى

مشارق الأرض ومغاربها فلا تقتصر فى إلقائها على أساتذتها فحسب بل تمتد إلى أبعد من ذلك حتى يكون فى تمحيص الرأى وعرض الموضوعات ودراستها حياة لهذه الثقافة وبعث لهذا التراث من أن يندثر أو يضيع .

وكان يمكنها انتهاز المواسم الثقافية والدينية فتحتفل بها وتنشر على الناس نحوين من الدراسة ؛ دراسة عميقة للمثقفين فى العالم الإسلامى ودراسة شعبية لأنصاف المتعلمين أو الملمين بالقراءة والكتابة ؛ فالشعوب الإسلامية فى حال يقظة ووعى فلنستغل هذه الحال ولنبعث فيها ما يقويها ويقويها ويصونها عن الانحراف ولنحفظ عليها دينها وثقافتها ومجدها التليد .

وشبيه بهذا احتفالها بعظماء المسلمين وفلاسفتهم ، فتقدم للعالم الإسلامى بناته والذين خلفوا له تراثاً غنياً دسماً من أمثال الغزالى والفارابى وابن سينا وابن رشد وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد والشافعى ومالك وابن حنبل وابن خلدون والأفغانى ومحمد عبده .

وكان يمكن للأزهر أن يقوم بأداء عمل جليل إذ يضطلع بإيجاد قانون إسلامى جنائى ومدنى يقارن فيه بين المبادئ الإسلامية وبين غيرها من القوانين الأخرى كالفرنسى والبلجيكى عارضاً حكمة التشريع الإسلامى عرضاً قويماً صحيحاً وبهذا يقضى على ما علق ببعض الأذهان من أن التشريع الإسلامى قد يتعارض وبعض الفتوح الحديثة فى ميادين العلم .

إن الأزهر بما له من ماض عريق ووسائل لم تهيأ لغيره من الجامعات يستطيع أن يفعل كثيراً وأن يمسك كما كان من قبل بزمام النهضة الإسلامية يوجهها إلى خير ما يصبو إليه العالم العربى من وحدة فى الروح والهدف وجدة الرأى والعمل .

والأزهر بما يؤمه من طلاب شرقيين وغربيين وبما تهفو إلى زيارته من قلوب مؤمنة فى الكوكب الأرضى قمين بأن يجمع المسلمين على ثقافة واحدة أو يقرب بينهم فى الوجهة والخطة فيعملوا غير متنافرين أومتدابرين.

وقد أدى الأزهر فى هذه السبيل خدمات لا تجحد وبخاصة فى عهود سحيقة مظلمة مرت بالعالم العربى وكادت تجتاحه أو تأتى عليه فكان الأزهر الملجأ الوحيد للغة العربية اللغة القومية والحانى الفرد على التراث الإسلامى الذى هددته الغزوات المتتابعة على الشرق العربى فى العصر الحديث .

إننا نريد من الأزهر أن يكون على ما رآه له الأستاذ الإمام محمد عبده « منارة للعالم الإسلامى كله لا فى علوم الدنيا وحدها بل فى علوم الدنيا منضمة إليها معززة إياها فى قتال الحياة »[١] .

ولا يقتصر الأزهر على مصر والشرق الأدنى بل يجاوز نشاطه وجهوده إلى البلاد النائية كجنوب إفريقيا وغربها وأواسطها وشرقها ؛ بنشر الكتب الإسلامية المبسطة بلغات هذه الأمم وبعث المعلمين والمثقفين فى الدين ، المشهورين بالورع والتفانى فى خدمة الإسلام ليزودوا هذه العوالم بما يحفظ عليها دينها ويباعد بينها وبين الفتنة الواغلة الطاغية التى يبثها أعداء الإسلام والمسلمين .

ليس هذا فحسب بل يعمل على نشر الأهداف الأساسية للإسلام ، الأهداف السامية الإنسانية فى البلاد الغربية حتى لا تشوه تعاليم الإسلام ويرمى بالنقائص من جانب المبشرين المتعصبين ؛ فالإسلام

(١) محمد عبده الدكتور أمين ص ١١٣ .

دين سماوى له مثل عليا وقيم روحية دونها أى قيم أخرى وهو دين المحبة والسلام والإخاء وهو دين القوة والحق والخير يتجلى كل أولئك فى كتاب الدعوة « القرآن الكريم » وفى « الأحاديث النبوية » وفى القدوة الحسنة التى خلفها الصحابة والخلفاء وعظماء المسلمين على الأعوام والأجيال .

وإذن فرسالة الأزهر رسالة ضخمة ينبغى أن تخرج إلى حيز الوجود فى عهد الثورة وأن ينشط أساتذته وعلماؤه ليؤدوا حق الدين عليهم ، وأن يخرجوا بهذه الرسالة إلى أبعد الحدود ناسين ذواتهم ملبين نداء ربهم « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

و ـ جمود علوم اللغة العربية

إذا كانت اللغة الفصحى قد وجدت فى اللهجات المحلية ما يزاحمها ويحاول أن ينتزع السيطرة منها فما ذاك إلا لأن القوامين على الفصحى تهيبوا أن يتناولوا علومها بالتغيير والتجديد ، وحاطوها بهالة من القداسة والتسامى فظلت مقاييس الفصحى على حالها لا يعرض لها مفكر بالبحث إلا رمى بالزندقة والخروج على الدين وكأن هذه المقاييس منزّلة أيضاً من عند الله كالوحى سواء بسواء .

ونحن نرى الزمن يتجدد والمقاييس العملية تدق وترقى ولا يحاول مفكرو العربية أن يتقدموا خطوة جريئة تغير من أوضاع المعايير القديمة وتنحو بها نحو التحرر من تلافيف الماضى وعقلية العصور الوسطى ، فكلنا يعلم أن علوم العربية قد طغى عليها طغياناً كبيراً روح فلسفة اليونان

ومنطقهم فكثر فيها التفريع والتقسيم حتى صارت أشبه بالأحاجى وأقرب إلى المساتير .

ترى هذا فى علوم البلاغة فأول ما يعرض منها تحديد « معنى البلاغة » من أنها « مطابقة الكلام لمقتضى الحال « فما المطابقة ؟ وما المقتضى ؟ وما الحال ؟ » .

فإذا تركت هذا التعقيد فى التعريف إلى تشقيق علوم البلاغة إلى علم البيان وهو « البحث الذى يحترز به عن التعقيد المعنوى » وعلم المعانى وهو « الذى يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد » وعلم البديع وهو «ما يعرف به وجوه التحسين فى الكلام » .

رأيت هذه الصورة تجافى الوضع المحدث أو الأصيل للبلاغة بل إنها تباعد بين المتأدب وبين البلاغة إذ تخنقه فى جو من التعاريف المقبضة التى تبعد كل البعد عن الجمال والذوق والفن ، قوام الخلق والابتكار .

ولعل طلاب العربية قد أضجرتهم هذه التعاريف الجافة فارتسمت فى أذهانهم صورة خافتة بل باهتة للبلاغة العربية والأدب العربى الرفيع ، وأظن أن كلنا قد درس باب « الفصل والوصل » بوضعه فى البلاغة العربية وخرج منه ضيق الصدر محنق النفس لما أثقل به من الالتواء والتعقيد حتى أضحى لغزاً من الألغاز لا يفقهه إلا الراسخون فى العلم وقليل ما هم .

إن أشد ما أسفت له فى حياتى التعليمية الأولى هو هذه الساعات الطويلة التى أهدرتها فى أمور ليس فيها كبير عناء .

وإذا جاوزنا البلاغة إلى النحو العربى وجدنا أعجب من العجب ، وفنوناً أقرب إلى اللغو وأمعن فى التعقيد .

أرأيت إلى هؤلاء النحويين الذين عناهم هذا البحث فلجئوا إلى النظم يستعينون به على حفظ الحواشى والمتون فكانت ألفية ابن مالك وكثير على غرارها !! .

ولو أعدنا النظر فى شيء من التسامح فى نظم الكلام أو علم النحو العربى لجعلنا له وضعاً آخر وأقمنا بناء مغايراً ليس فيه تعقيد الزخرف العربى أو التواء المنطق اليونانى .

وأول ما نبرئ منه النحو العربى هذه الآراء المتباينة والأقوال المتناقضة التى لا تكاد نتبين من كثافة ضبابها خطأ النظم من صوابه وجماله من قبحه فانطق الكلمة على أي وجه إعرابى وحركها بما تشاء من الحركات فأنت مصيب فى كل منها على رأى من آراء النحاة وما أكثرها .

قد يكون هذا أثراً من آثار تعدد اللهجات العربية التى جمعها الرواة من غير استطاعة اللغويين التمييز بين هذه اللهجات واللغات فعدوها جميعها من صميم لغة قريش وإذا هذه اللغة أقوال يناقض بعضها بعضاً ، ويهدم أولها آخرها وأصبحنا فى فوضى مبلبلة إن صح أن يعللها الراسخون فى العلم فعسير على شداة الأدب أن يعرفوا لها باعثاً أو دافعاً فإذا هم ينكرونها ويثورون عليها وتتزعزع ثقتهم بلغة أجدادهم .

إننا نؤدى للعربية خدمة جليلة لو نخلنا هذه اللغة ، وأبقينا على الرأى الراجح وقعدنا له وأقمناه على أساس مكين .

وهناك أبواب برمتها فى النحو العربى نستطيع التخلص منها كباب « المعرب والمبنى » فلا معنى لهذه التفرقة فالفعل الماضى (كتب) يعرب منصوباً بالفتحة لأنه لم يتصل بشيء كما يعرب المضارع المسبوق بأداة

نصب ، أما الماضى المتصل بضمير أو تاء تأنيث فليس بحاجة إلى إعراب فالفعل (خرجا) من الجملة (التلميذان خرجا) فعل ماض منصوب بالفتحة ونأخذ برأى الكوفيين من أن فعل الأمر مجزوم بالسكون وليس مبنياً كمذهب البصريين.

ونقدم كذلك على حذف الإعراب التقديري والمحلى .

كما أننا لسنا بحاجة إلى علم (الصرف) الذى أذاقنا الصاب والعلقم فى تفهمه والوقوف على أسراره ومع هذا خرجنا منه خلواً من معرفة أو فهم .

ومن منا لم يعنه « الإعلال والإبدال والميزان الصرفى » ؟ .

ولعل قيام هذا العلم إنما كان نتيجة تعدد نطق الكلمة وتيه متعلم العربية فى ضبط الفعل الثلاثى أو الرباعى ، فهل الكلمة الثلاثية المنطوقة من باب « ضرب يضرب » أو « فهم يفهم » ؟ وما إلى ذلك من حيرة الفكر وتوزع الذهن ، وما أجمل تلك القاعدة الذهبية التى لو جعلها اللغويون شعارهم لما وقعوا فى هذه التفريعات المسئمة وهى « النحو فى الكلام كالملح فى الطعام » فالقليل المساغ منه يحرر عقول دارسى العربية مما نثقلها به من سقيم الآراء وعقيم المجادلات ، وفى الوقت نفسه يريدها على الصحة والسلامة ويصرفها إلى أغراض أخرى ما أحوجنا إليها فى عصرنا الحاضر ، عصر النهوض والتوثب .

وكيف نتحدث عن نظم الكلام ونغفل الكتابة العربية أو الخط العربى ؟

لقد شغل هذا الإصلاح وقتاً كبيراً من فراغ مفكرى العالم الإسلامى وبخاصة المجمع اللغوى المصرى الذى رصد جائزة قدرها ألف جنيه لمن يتقدم إليه بمشروع هذا الإصلاح .

ولا شك أن هذا العمل إيمان من القائمين به على أن الخط العربى

فى حاجة إلى إصلاح كبير والحق كذلك فالرسم العربى فى حاجة إلى تغيير وتهذيب ، ولا أدل على ذلك من النقص المعيب فى الرسم ما كتبه على الجارم فى تقرير له إلى المجمع جاء فيه :

« علينا أن ننقذ قراء العربية من اللحن الشائن والخطأ المعيب وأن نجعل لغتنا الشرقية فى صف مع جميع اللغات الحية التى لا تحتاج إلى قراءتها صحيحة إلا أن تترجم الأصوات عن رسوم الحروف» .

وفى الحق أن القراءة أصبحت عندنا عملا علمياً دقيقاً كثير التعقيد والتركيب وصارت فناً من الفنون أو عبئاً من الأعباء وإن شئت أن تقول إنها أصبحت لغزاً من الألغاز فقل إنك لا تستطيع قراءة العربية على وجهها إلا إذا كنت لغوياً صرفياً نحوياً معاً فإن لم تكن كل هؤلاء جميعاً عجزت عن أن تكون قارئاً أو شبه قارئ .

فإن قالوا إن الشكل يسد هذه الحاجة ويذلل تلك الصعوبة قلنا إن الشكل لا ينقذ من الخطأ بل إنه قد يكون مدعاة للخطأ وكيف تستطيع العين أن تدرك الحروف وما تحتها وما فوقها فى آن واحد مع الضبط والدقة ثم تنقله إلى أعصاب المخ فتنقله هذه إلى أعصاب اللسان سليما صحيحاً لقد جربنا فى مدارسنا أن التلاميذ يخطئون قراءة المشكول خطأهم فى قراءة غير المشكول جربنا أن الطالب المثقف لا يستطيع قراءة القرآن الكريم وهو مشكول على أدق ما يكون الشكل وأحكم ما يكون الضبط ثم إن الشكل كثيراً ما ينقل عن مواضعه عند الطبع فتنقل حركة المفتوح إلى المضموم وتنقل الحركة من حرف يجب شكاه إلى حرف لا يتطلب لضبطه شكلا ، وأخرى أن الشكل عمل شاق فى الطباعة يحتاج إلى دقة

وإلى زمن وإلى أجر مضاعف لذلك قل من الكتب المشكول ورأى أصحاب الصحف والمجلات أن الشكل صعوبة مادية لا تذلل [1] .

هذه الصعوبات أدت إلى التفكير فى تغيير رسم الكتابة فاقترح عبد العزيز فهمى الحروف اللاتينية كأساس للتغيير وقد واجهته مشكلات لتحقيق اقتراحه أهمها الناحية النفسية فالاستعمار الغربى وسياسته الدنيئة أوجدت جواً من البغض الشديد لكل ما يمت إلى الغرب بصلة ومنها عدم إحاطة أصوات الحروف اللاتينية بأصوات العربية والفراغ الكبير الذي تحتله الكتابة بالحروف اللاتينية .

ثم إنه ليس من المصلحة فى شيء الطفرة فى الإصلاح فعلينا أن نتدرج به من رسم ما ننطق به من أصوات وإهمال غير المنطوق فكلمة « هذا » تكتب « هاذا » ولفظ « أولئك » تكتب « أولائك » .

وواو الجماعة تكتب من غير ألف .

وأن ترسم الهمزة كما تنطق بها سواء أكانت فى وسط الكلمة أم فى آخرها فنكتب « يملئون » هكذا « يملؤون » .

وألا نضبط الحرف المفتوح بل نتواضع على معرفته من غير شكل .

وألا نلجأ إلى الضبط إلا فيما يشتبه علينا فى النطق .

نقوم بهذا كخطوة أولى للإصلاح حتى إذا استطاع أحدنا التفكير فى رسم آخر للحروف العربية يؤدى أصواتها ويريح البصر ويخفف عن الأعصاب المرهقة عقابيل النقط والشكل اللذين لا نظير لهما فى لغة حية لو استطاع ذلك لأدى أجل خدمة للعربية وأسدى أعظم جميل للأجيال القادمة.

---

(١) عن كتاب « الحروف اللاتينية لكتابة العربية » لعبد العزيز فهمى ص ٨ ، ٩

٥

تطوير الوعى الثقافى

إذا استطعنا التغلب على المعوقات الثقافية التى تقف فى طريقنا وقد أتينا عليها قبل نكون قد مهدنا الأرض للبذر والثمر للنضج وأوضحنا المنهاج للأجيال القادمة .

على أنه ينبغى ألا نقف بجهودنا عند هذا الحد بل أن نعمد إلى تطوير الوعى الثقافى وتقديم الغذاء الفكرى الكافى للناشئة وذلك بأن نبسط العلم وننشره على الناس لا يقوم بهذا الجهد هيئة أو جماعة بل أن تضطلع به جماعات وفى مقدمتها الجامعات المصرية ووزارة التربية والتعليم والهيئات الثقافية الحرة الأخرى كلجنة التأليف والترجمة والنشر ولجنة البيان العربى واللجنة الثقافية لمجموعة « اخترنا لك » ودور النشر الكبرى.

ولكن ماذا عليها أن تصنع ؟

هذه هى العقدة التى يجدر بنا أن نعرض لها بالحل وأن نطالب القوامين على الثقافة بالعناية بها ورعايتها حتى تأخذ سبيلها إلى العقول والنفوس .

إنى أرى أن يضطلع هؤلاء الأعلام الذين يقومون على التوجيه الثقافى وتكوين الرأى العام المستنير بأمور منها :

ترجمة الكتب العالمية ذات الخطر فى التثقيف والتوجيه من قصص وتاريخ وفن وعلم متابعين تقدم البحوث آخذين بالمنهج الحديث فى العرض والأسلوب والأداء .

فكما قلنا من قبل نحن لا نزال فى دور التكوين والبناء فلنتعرف إلى أسلوب من سبقونا فى العلم والمعرفة والفن ليمكننا أن نلقح آثارنا بآثار غيرنا وتطويع ثقافاتنا حتى لا تركد أو تعقم .

وليس من الميسر لكل مصرى الاطلاع على التراث العالمى فإذا حذق أحدنا لغة أجنبية فربما لم يتح له حذق لغة أخرى تحمل طابعاً خاصاً وتضم كنوزاً مغايرة من الحمق أن نجهلها أو أن نغفلها .

وكثير منا لا يحذق لغة أجنبية فلم لا نيسر له السبيل ؟ ولم لا ننقل إليه هذه الروائع حتى تمكنه من أن يدلى بدلوه بين الدلاء وأن يستقى من الينابيع الثرة الأخرى؛ فقد يكون ذا موهبة واستعداد طيب يمكنانه من أن يؤدى للثقافة خدمة جليلة ؟ الأحرى أن نهيىء له السبيل حتى يرووده فإنى لأعرف أدباء نابهين عرفوا طرائق الغرب من وادى الترجمة فحسب ثم أنتجوا ما يخلدهم وما يذكر لهم بالتقدير والإعجاب .

إن كثيراً من أمهات الكتب العالمية روسية وهندية وصينية وإنجليزية وأمريكية وفرنسية وألمانية لم تنقل إلى العربية بعد مع أنها ترجمت إلى أكثر لغات العالم وما ذاك إلا لأننا لم نركز جهودنا فى هذا الصدد واعتمدنا فى ذلك على الهيئات والأفراد أكثر من اعتمادنا على جهد الدولة ولست أدرى لم لم تنجح الدولة وقد أقدمت على ذلك منذ سنوات طوال ؟

الجواب عن هذا هو ما نجيب به عن كل مشروعاتنا فى العهود

السابقة فإنتاج الحكومات كان ضئيلا والموكل إليهم القيام على هذه المشروعات إما أنهم غير كفاة أو اعتبروا الوظيفة الحكومية نوعاً من « الميرى » الذى هو مظهراً أكثر منه مخبراً .

وقد رأينا إدارة الثقافة العامة سواء فى الجامعة العربية أو فى وزارة التربية والتعليم تقوم اليوم على نقل هذه الروائع ونرجو فى عهدنا الجديد عهد السرعة وخدمة الصالح العام أن تبلغ كل منهما الشوط ، وأن تنجز ما وعدت به وأن تقدم للمثقفين غذاء عالمياً رفيعاً .

ومصر المعاصرة قد هيأت نفسها لتسير فى طريق اشتراكى قويم فلنوجه ثقافتنا فى هذا الطريق ، ولنعمل على دعم هذا النظام وتوجيه الشباب وجهته لأنه النظام الذى يتسق وظروفنا الاجتماعية ولجعل الثقافة فى خدمة المجتمع ، المجتمع ذى الخضم الواسع ؛ المجتمع الذى يحفل بالرجل والمرأة ويضطرب فيه العامل والزارع والتاجر والموظف .

المجتمع الذى يضم المواطن الصالح الذى ينهض بعمله على أتم وجه وأكمله .

المجتمع الذى يخوض فيه الجميع معركة الحياة الصاخبة وقد يخطئه التوفيق ، وقد يحالفه حسن الطالع ولكن ينهض فيه كل بواجبه على أية حال .

المجتمع الذى يعيش فيه الشعب بآلامه وآماله ، بكفاحه وجهاده ، بصراعه ونضاله .

هذا المجتمع هو الذى نصور حياته ونسدد خطاه ونغذى روحه ونسجل خطراته ونحيي موات الأمل فيه بالألوان الثقافية التى نقدمها إليه مترجمة أو مؤلفة .

لنقدم إليه ثقافة الحياة التى يحياها ولنشبع فيه طموحه وسموقه الفكرى والروحى والنفسى .

لننح عنه أدب الضعف النفسى والتحلل الخلقى والترنح الفكرى .

لنبعد عنه الأدب الرخيص الأدب المكشوف ، أدب الجنس الواغل فى التدلى، المتمثل فى أدب الوجوديين والفوضويين والحائرين . .

لنزح من طريقه أدب الزلفى والضراعة ، الأدب الذى يمثل الحس الزائف والشعور المفتعل .

وبهذه المناسبة أطالب حكومة الثورة بغربلة النصوص الأدبية التى تدرس فى معاهدنا فتبعد كل ما يتصل منها بالمديح والرثاء الصادرين عن عاطفة خائرة، وأدب الجنس الذى يؤدى إلى انحطاط عاطفة الحب وتدليها .

لننق أدب المعاهد مما يشوبه من ضعف ويتنفس فيه من انحلال ، لنطهر ديواننا الشعرى من كثير من أدب جرير والفرزدق والأخطل وأبى نواس والمتنبى وأبى العتاهية وحافظ وشوقى ومن إليهم وأن نعرض على الطلاب المثقفين أدب القوة، الأدب الجميل النابع من شعور صادق حتى نطبعهم على المثل العليا ونغرس فيهم صفات البطولة والشجاعة والحب والإنسانية .

إن الأدب العربى والثقافة العربية فيهما أدب جميل قوى فلنقبل عليه ولنأخذ طلابنا به لنقدم إليهم أمجاد العروبة فى أروع صورها وأزكى عواطفها .

وقد عمل الزيف عمله فى تاريخنا الحديث والقديم حتى يضعف المحتل معنويتنا، ويهدم الحاقد بمعوله صرح كياننا؛ فلنكتبه من جديد كتابة فيها صدق وأمانة وتحرر .

وتاريخنا القديم والحديث تاريخ ملوك وأمراء لا تاريخ شعوب وجماهير

فلنحاول أن نقتفى آثار هذا الشعوب المكافحة ونتعرض لما كان يكاد لها ويوضع فى طريقها من عقبات ، ويحيط بها من سدود وما كانت تحاوله لتدفع عنها الجور وترد عادية المعتدين .

والأصول الإسلامية فى أشد الحاجة إلى تنحية ما علق بها من دخيل وتنقيتها مما خالطها من شوائب التعقيد والالتواء حتى سلبت أقوى سماتها وهى البساطة والمرونة والاقتصار على الأمهات دون الفروع .

والإقدام على هذا العمل جد خطير فقد أدخل على هذه الأصول ما ليس منها وحملت ما لم تكن تحمل وأضحت اليوم مذاهب شتى وطرائق متقابلة حتى انتهى الأمر بالمسلمين ألا يلتقوا على رأى فى أمر دينهم وأن يصبحوا شيعاً وأحزاباً فإذا أخضعنا هذه الأصول لمنهج البحث الحديث وقابلنا بين مراجعها ومصادرها وعملنا على تهذيبها وتقويمها بروح العصر ولغة العصر اكتسبنا حقولا جديدة ومهدنا الطريق للأجيال الإسلامية القادمة لتكون أكثر توفيقاً وأحكم تسديداً أو أقرب إلى الالتقاء .

ولنؤمن عند ما نتناول هذه الأمور أننا لا نعمل لمصر فحسب بل إننا نعمل لنشر هذه الرسالة أو هذه الثقافة فيما وراء حدودها وإنها لحد بعيدة فأضواءنا قوية الإشعاع عميقة الأثر كما نقلت إلينا الرواية التاريخية التى لا تكذب .

قد تنهض الدولة والهيئات بهذه الجهود ولكن كيف السبيل إلى أخذ الجمهور بالقراءة والاطلاع والتثقف ؟

يكاد يكون من المرجح أن الثقافة فى مصر الآن فى أزمة أو ما يشبه الأزمة وأن أغاب البلاد العربية الأخرى قد سبقتنا فى الاطلاع والتثقف

فكيف السبيل إلى التغلب على هذه المشكلة ؟

إن مسئولية المدرسة جسيمة فى هذا الصدد لأنها القبلة الأولى التى يتجه إليها التلاميذ وتغرس فيهم البذرة الثقافية الأولى ، وتتعهدها بالتنمية وهى النافذة التى تطل منها الإشعاعات الثقافية المبكرة وجدير بالمربين أن يستغلوا هذا الموقف وأن يبثوا فى طلابهم روح القراءة والاطلاع حتى تصبح فيهم عادة متأصلة لا يستطيعون منها فكاكاً ولا يبغون عنها حولاً .

فمدرس اللغة العربية مثلا لا يقتصر على الكتاب المقرر المدروس بل يتجاوزه إلى كتب أخرى والطريق أمامه ممهد والسبل ميسرة فى دروس المطالعة والإنشاء والنصوص والبلاغة والأدب والنقد الأدبى .

ومدرس التاريخ يمكنه أن يجاوز الكتاب المعهود إلى كتب أخرى كتاريخ الجبرتى فى الحملة الفرنسية وعصر محمد على .

وتستطيع المدرسة أن تعقد مسابقات صيفية فى كتب ثقافية مختلفة وأن تجعل مجلتها منبراً لخيرة التلاميذ وأن تهيئ أحاديث مختلفة يشترك فيها الطلاب والأساتذة وأولياء الأمور والآباء .

وأن تعنى بمكتبة المدرسة عناية فائقة وتراقب مراقبة دقيقة من النظار والمفتشين من الإدارة العامة للثقافة وتجعل درجة مقدرة للقراءة الحرة يحاسب عليها التلاميذ .

وأن تجعل من الأندية الصيفية فى المدارس مجالا للتثقيف والقراءة والحديث الممتع والسمر اللذيذ .

وأن تكافئ وزارة التربية والتعليم من يتقدم من الطلاب إلى مجلة المدرسة — بأطرف مقال وأجمل حديث .

وألا تضن بمال على شراء الكتب المحببة إلى نفوس الطلاب وأن تقدم على نشر الأبحاث الطريفة التى يتقدم بها المدرسون والمربون وتشجع أصحابها على الدرس والاطلاع ، وأن تكون امتحانات القبول فى الجامعة قائمة على حظ الطالب من الثقافة العامة وأن تكون أبعد الأشياء عن استيعاب المذكرات وحفظ النصوص .

وأن تطعم الدراسات الصيفية للمدرسين بألوان من الثقافة العامة وأن تخرج مجلة سنوية تحمل بعض هذا النشاط .

أى أن تخلق فى الطلاب والمدرسين روحاً من الانصراف إلى القراءة والاطلاع والدرس فيشب الطلاب على هذا النحو ويظلون على هذا المنهج طوال حياتهم .

وإذا كانت المدرسة لها حظها فى المشاركة فى التثقيف فعلى البيت يقع عبء آخر إذ ينبغى أن تهيأ مكتبة خاصة فى كل مسكن من مساكننا تزود بالكتب المختلفة وأن تجعل المكتبة أساساً من كياننا وحياتنا لا يطيب لنا مقام إلا بها ولا نعيش إلا عليها .

وقد يستطيع رب الأسرة أن يشارك فى ذلك إذا مهدله السبيل بأن رفع مستوى معيشته من ناحية وقدمت له الكتب بأثمان معقولة من ناحية أخرى ويا حبذا لو أكثرنا من طبع الكتب طبعات شعبية تكون فى متناول الجميع .

أما الدولة فعليها العبء الأكبر والنصيب الأوفى إذ ينبغى أن تعمل على نشر المكتبات العامة فى الأحياء المختلفة ، وأن تأخذ بمشروع المكتبات الشعبية المتنقلة المزودة بالكتب المبسطة وتمد الأندية الثقافية والجمعيات

المختلفة والنقابات العمالية وغيرها ببعض الكتب التى توجه الشعب خير وجهة وتثقفه أحسن تثقيف .

وتجعل من الإذاعة منبراً للتثقيف والسمو الفكرى بإلقاء الأحاديث الناضجة وتقديم الكتب الثقافية الرفيعة وإشاعة الوعى الثقافى بين المستمعين .

وأن تجعل الاختيار فى توزيع الدرجات وإسناد المناصب الأرقى أساسه حظ الفرد من التثقيف والمعرفة .

إنها إن فعلت ذلك شجعت الكاتب على أن يكتب والدارس على أن يدرس والباحث على أن يبحث وقللت من موجة الإجرام الناشئة من الفراغ والشباب وجليس السوء ونقلت الشباب من التطرف اليسارى إلى الاعتدال والقصد .

وخلقت رأياً عاماً مستنيراً يحكم فى تبصر وتعقل ولا يندفع وراء الأفكار الخادعة كالسراب ، وكونت جيلا مؤمناً بنفسه واثقاً من أمره لا جيلا يجرى وراء الإشاعات ويؤمن بالترهات ويحيا على الأوهام .

« ختام البحث »

وأخيراً أيها القارئ فقد وضعنا لك شخوصاً ومعالم توقفك على تطور الوعى فى مصر لتعرف أين مكانك ، فتبذل الجهد وتضاعف العمل وتضع يدك فى يد قواد الثورة ليعلو صرح النهضة وتطرد عوامل التقدم فتثبت للعالم الذى يتطلع إليك اليوم ليرى مبلغ جدك و يتعرف مدى طاقتك أنك جدير بالنهوض قمين بالوثبة وأن الحركة الثورية الإصلاحية إنما هى حركتك قبل كل شىء و بعد كل شىء ، وأن التطور نابع منك وليس غريباً عنك ولتعلم أن الدولة مهما يقدها مخلصون ، و يكن على رأسها مصلحون قادرون ، فلن تبلغ الشأو إلا إذا أعنتها بمالك وجهودك وتضحياتك .

فإذا أردت لوطنك وثبة عارمة ، ونهضة دافقة فلن يتأتى ذلك إلا إذا وقفت منه موقف التسديد والتأييد ، فمشروع حيوى كمشروع مكافحة الأمية لن تستطيع الدولة وحدها أن تنهض به وتقوم عليه إلا إذا مددت إليها العون برأيك إن كنت مفكراً ، وقلمك إن كنت كاتباً ، ومالك إن كنت قادراً .

ومشروع كمشروع التأمين الاجتماعى فى حاجة إلى معونة الأثرياء وفضول أموال الأغنياء حتى يؤتى ثماره و يكون له مكانه .

ولعلك رأيت أن الوعى أيا كان جوهره لا يكتمل ولا يقوى ولا يطرد تقدمه إلا إذا استنارت الجماهير وتثقف الشعب وارتفع مستواه المعيشى

ووجه فى نهضته الوجهة السديدة التى تبلغ به مبلغ التماسك والوحدة ؛ وهى أمور قد وضعت الثورة القائمة أسسها وألقت بذورها وأنبتت جذورها وعلى الشعب أن يعلى هذه الأسس وأن يصون هذه البذور وأن يمد فى هذه الجذور .

وهو إذا فعل صان التقدم من أن تناله أيدى الرجعية ومعاول الهدم ونقيق الضفادع .

وهذا الموقف يؤدى إلى إيمانه بالنظام الاشتراكى الديمقراطى الذى يقدر العمل ويؤصل للدولة ويزيد من النتاج ويؤمن العامل ويحصن مستقبل الفرد ، ويرفع معنوية الأمة .

وإنه من الحق على وأنا أرصد الأحداث أن أنوه بتباشير هذا الوعى الجديد التى أخذت تلوح فى أفقنا من تأييد منقطع النظير لحركة قادة الثورة فقد استقبلت من الشعب استقبالا حماسياً بالغاً مؤثراً وزاد الاستقبال روعة وقوفه من ورائها يشد أزرها ويحيى طلائع إصلاحها ، ويغريها بالسير قدماً فى مشروعاتها التقدمية ؛ ولأضرب على ذلك مثالين ، أما أولهما فترحيبه بمشروع وحدة التشريع وإلغاء المحاكم الشرعية والمجالس الملية .

هذا الإلغاء الذى تقدم خطوة فى سبيل وحدة المجتمع وتماسكه ، وقضى على الاضطراب والشذوذ الباديين فى تشريعنا وهيأ لنا فرصة إحاطة حقوقنا بسياج من العدالة والتيسير والقوة .

وأما الآخر فإقباله الرائع على تأييد سياسة حكومة الثورة تجاه عقد صفقة الأسلحة التشيكوسلافاكية ، ودعوته إلى تعزيز عتاد جيشه بمد الحكومة بسيل جارف من التبرعات .

لقد وعى هذا الشعب وأدرك ما تمر به بلاده من حرج الموقف ، وتهديد دولة إسرائيل لها بين آونة وأخرى واعتدائها على خطوط الهدنة بين يوم وآخر ، وعرف أن وطنه يحدق به الخطر ؛ فاندفع من تلقاء نفسه بالتطوع فى صفوف الجيش ومد الحكومة بالمال فضحى بأغلى ما يضحى به مواطن من النفس والنفيس .

فما بالنا إذا اكتمل هذا الوعى وازداد نضجه وقوى شأنه ! !

إن النهضة ستكون حينئذ أكثر تقدماً وأعظم شأناً وسيسطر لها التاريخ أروع فصل وأنصع صفحة من صفحاته .

فهرس

صفحة

تمهيد ٥

الوعى السياسى :

عوائق تطوره ١١

١ – الاستبداد السياسى ١١

٢ – الاستعمار ١٤

٣ – التطاحن الحزبى ١٨

عوامل تطوره :

١ – تنافس الدول الكبرى . . . ٢١

٢ – انبثاق فجر الحرية . . . ٢٤

٣ – ظهور المذاهب السياسية . . . ٢٧

مظاهر تطوره :

١ – اشتراكية الدولة ٣١

٢ – نحو سياسة مستقلة ٣٤

٣ – إلى اتحاد عربى مكين . . . ٣٦

الوعى الاجتماعى : صفحة

المجتمع المصرى ٤٥
القوى التى تتحكم فيه ٥٣
١ ــ الدين ٥٣
٢ ــ الخلق الاجتماعى ٦٢
٣ ــ قوة التحرر والانطلاق . . . ٩٠

الوعى الثقافى :

ماذا نعنى بالثقافة ؟ ١٠٥
مقومات الثقافة فى مصر ١١٠
الثقافة المصرية ١١٦
معوقات النهوض بالثقافة ١٢١
ضعف التعليم الجامعى ١٤٣
تطوير الوعى الثقافى ١٦٣
ختام البحث ١٧١

مجموعة اخترنا لك

- تصدر فى اليوم الأول من كل شهر
- يسطر بحوثها أحرار الكتاب وقادة الفكر
- تجلى المشكلات المعاصرة ، وتضع لها الحلول الموفقة
- تسجل أحداث التاريخ فى أمانة وتحرر
- تطلعنا على آفاق واسعة من الثقافة الرفيعة
- يقبل على قراءتها الشباب المثقف على كثرة ما يطبع منها
- طبع بعض بحوثها طبعات عدة
- أول مجموعة تصدر فى الشرق باللغة الإنجليزية تحت عنوان :

SELECTED STUDIES

الطابع والناشر

دار المعارف بمصر